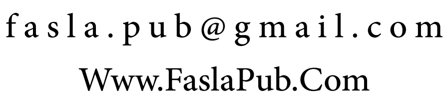
ظل شاحب لرجل غريب

أحمد نبيل

ظل شاحب لرجل غريب
احمد نبيل
تدقيق لغوي : عبدالله أبو الوفا
تصميم الغلاف : عبير محمد
رقم ايداع: 3656/2020
ترقيم دولي : 978-977-6594-88-3



دار فصلة للنشر والتوزيع
العزيزيه - منيا القمح - مصر
٠٠٢٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١

fasla.pub@gmail.com
Www.FaslaPub.Com

الطبعه الأولي يناير ٢٠٢٠



ظل شاحب لرجل غريب

أحمد نبيل



إلي الذي كان صوتنا وسط العتمة.

إلي الذي لم يخنا أبدًا وظل ثابتًا حتى النهاية.

إلي الذي علمنا أن الحياة أكثر بكثير مما نعتقد.

إلى روحه التي لم تحتمل ما يحدث لنا على الأرض ففرت إلى السماء.

إلى د. أحمد خالد توفيق، رحمة الله عليه.



إلى التي عرفتني أن الحب الصادق موجود وممكن.
إلى التي معها صار كل شيء جميلًا وحيًا.
إلى مها بالطبع.

إلى أبي وأمي اللذين لولاهما لما كان أي شيء.

خلف جدار العبيد

حسنًا، كانت هناك مدينة، وكان بالمدينة جدار، وكان خلف الجدار شعب، وكان الشعب من العبيد، هذا أمر يعلمه الجميع، لا جديد فيه، الحاكم وأبو الحاكم وابنه من بعده يعلمون أنهم عبيد، حاشية الحاكم يعلمون أنهم عبيد، والعبيد أنفسهم يعلمون أنهم عبيد.
كم عمر المدينة؟ لا أحد يعلم ولا أحد يتساءل، المهم أنهم كانوا هناك، دائمًا كانوا هناك، يفعلون نفس الشيء، يزرعون ويحصدون، يسلمون المحصول، بعده يوزن المحصول ويكون الأجر بالطعام، بالفتات بمعنى آخر، شيء ما يبقيهم على قيد الحياة، لو أن الأرض بإمكانها أن تزرع نفسها وأن تجنى محصولها لتركهم حكامهم يموتون جوعًا منذ قرون،

لكن للأسف هناك دائمًا حاجة لهم، وكونهم عبيدًا فلهذا الأمر مزية هامة، فهم كطبيعة العبيد لا يفكرون والأهم لا يتساءلون، وهم راضون، مهما فعلت هم دائمًا راضون قانعون مرتاحوا البال هانئون.
والفضل فى السيطرة عليهم وجعلهم بهذا الخنوع والرضا يرجع إلى واحد من أهم مستشارى جد الحاكم الحالى، وهو مؤسس المدينة، كان هذا منذ حوالى ستين عامًا، اقترح عليه فكرة كان لها أبعد الأثر وأروع النتائج، فكرة مكنته والحكام من بعده من تملك زمام الأمور، من السيطرة على العبيد، من القضاء على أية حركات تمرد ووأد أى اعتراض فى مهده، فكرة عبقرية مكنته من ترسيخ فكرة واحدة، الطاعة ولا شىء غيرها.
أما الفكرة فكانت ببساطة شديدة أن يُبنى جدارٌ عملاقٌ، عملاق جدًا، عملاق بحق، جدار لا يبلغ الناظر مداه من شدة ارتفاعه، أما عن سمكه فهو عريض يكفى أن تسير خلاله دقيقة أو يزيد حتى تصل إلى الجانب الآخر، وهو مُترّس بأسلحة ودفاعات وأبراج حراسة، لا أحد يعبره سوى جنود الحاكم، ولا أحد يقترب منه سوى من هو مسموح له بالاقتراب.
هذا الجدار يفصل السلطة عن الشعب، يفصل بين مقر الحكم وقصر الحاكم وبين أطلال العبيد وأعشاشهم البائسة، هذا الجدار يفصل بين قصور الحاشية وقبور العبيد، هذا الجدار يفصل بين حدائق أبناء الحاكم الخضراء النضرة وبين مزارع العبيد السوداء القذرة.
هذا الجدار يفصل بين تأوهات الحاكم وعاهراته فى نزواتهم، وبين آهات العبيد الذين يعاقبون بالسياط إذا أخطأوا أو لو لم يخطئوا.

خلف الجدار بُنى تمثالٌ ضخمٌ من الذهب الخالص، كان هذا منذ عقود، تمثال لرجل ما، معالمه غير واضحة لكن يبدو فى ملامحه الجدية والحكمة، لكنه لم يكن تمثال لرجل عادى، كان له أربعة أذرع وأقدامه تشبه أقدام ليث بمخالب مخيفة، وأذرعه أيضًا، كان أشبه بأذرع أخطبوط متوحش بممصات واضحة رهيبة، وكان له ذيل أشبه بذيل طاووس مغرور يبدو ضخمًا من خلفه، كان كل هذا من الذهب الخالص، لامع براق، يثير اللب ويأثر الخيال، وكان ناحتوه فنانين بحق، كان التمثال رائعًا، والأروع كانت تلك الكلمة التى كتبت أعلاه، كلمتان فى الواقع، بخط واضح له هيبة، وبحروف من ذهب مطعمة بعقيق وماس ولؤلؤ، كُتب: "هذا إلهكم فاعبدوه".

كيف تم هذا؟ لم يعد هناك من يسأل مثل تلك الأسئلة السخيفة، المهم أن العبيد عرفوا إلههم، وربوا أبنائهم أن هذا إلههم، وكان للسلطان وعاظ ورجال دين، وكانت مهمتهم أن يطوفوا بين العبيد يحدثونهم عن روعة حاكمهم وحكمته وقوته ورحمته، يحدثونهم إنه قد حماهم وحمى البلاد من طوفان التتار والمغول، وأنه قد بنى هذا السور كى يحفظهم ويقيقهم شر الحرب ووبال أمرها، وإنه وجنوده يقاتلون خلف هذا الجدار من أجلهم، لم يتوقفوا يومًا، فالأعداء كثر والمؤامرات لا تنتهى.

كانوا يحدثونهم إن الحاكم وجنوده يبيتون الأيام والليالى بأمعاء خاوية، وإن أموال المحاصيل التى يجنونها لا تذهب لجيب الحاكم وحاشيته، بل يبتاعون بها السلاح والعتاد من أجل مواصلة الحرب، مواصلة القتال،

كانوا يؤكدون لهم أن النصر قادم لا محالة، وأن حاكمهم لن يهزم، لن يهزم ببساطة لأنه إله، والآلهة لا تهزم.
استمر هذا الوضع لعقود لم يتغير الحال ولم تتبدل الأوضاع، العبيد يعملون خلف الجدار ليلًا نهارًا، الحاكم يمرح مع غانياته فى فُرشه الوثيرة، والملذات تنهال عليه وحاشيته من كل جانب، والوعاظ ورجال الدين يطوفون بين الناس يقنعونهم بمزيد من الصبر، مزيد من الانحناء، مزيد من الصمت.
كل هذا معروف ومكتوب فى مخطوطات القدامى، حتى جد جديد فى أحد الأيام.
فى نهاية السور كان هناك مجرى مياه اضطروا حين بنوا السور إلى تغيير مساره أو ردمه، لكن يبدو أن الطبيعة كانت أقوى من رغبة الحاكم الأول مؤسس المدينة، فمجرى المياه قد بدأ يعود ببطء على مر السنين، وفى كل مرة تزداد المياه فى المجرى كانت تنحت جزءًا من السور، جزء ضئيل لا يمكن ملاحظته، واستمر هذا الأمر خلال الستين عامًا حتى جاء ذلك اليوم.
كان هناك شاب من عبيد المدينة، لم يكن مختلفًا، فكيف له أن يختلف، وكان قد وقع فى غرام فتاة من بيت مجاور، كانت فى مثل سنه أو تصغره بعامين، المهم أنه أخبرها إنه متيم بها وهى لم ترفض ولم توافق على شىء، فقط ابتسمت وتركته، فعرف أنها قد وافقت بالتأكيد، فأخبرها وهى تبتعد إنه سينتظرها عند ساقية معروف مكانها لديهم أثناء الغروب.

وبالفعل كان وقت الغروب قد اقترب ووقف ينتظرها، لم تمض دقائق حتى رآها مقبلة فاشتعل فى رأسه ألف خيال وخيال، وضع كفه فى كفها وقررا أن يبتعدا عن البيوت وعن أنظار الناس، لم يكن يخطط لشىء ذى بال، فقط يريد أن يجلسا معًا ويروى لها عن بعض البطولات الوهمية كى تهيم به، ويدبر معها أمر الارتباط فى القريب.

أخذا يبتعدان سويًا، لا إلى وجهة محددة، هو فقط أراد أن يبتعد قدر الإمكان، كان المكان والناس والبيوت يخنقونه، وصلا إلى مكان قرب الجدار الكبير، وكان هناك جزع شجرة قابع منذ زمن، فجلسا خلفه وأسندا ظهريهما إليه.

أخذ يضاحكها وأخذت تضحك، أخذ يحدثها عن عشقه وهى تنظر إليه متشككة وإن كانت سعيدة، أخذ يروى عن بطولاته فأخذت تتهكم فقد كانت تعلم إنه يكذب، المهم أنهما قضيا وقتًا ممتعًا، اقترب الظلام فقررا أن يعودا أدراجهما.

لكنه لمح شيئًا ما، شىء غير مفهوم.

-"هل هناك فتحة فى الجدار أم إننى أتخيل؟"

-"عم تتحدث؟"

-"تعالى معى".

اقتربا سويًا من الجدار أكثر، بالفعل كانت هناك فتحة فى أسفل الجدار يمر خلالها مجرى ماء صغير، كان عليه أن ينحنى حتى يرى إلى أى مدى هذه الفتحة تمتد، فانحنى وكانت المفاجأة، هذه الفتحة تمتد إلى الجانب

الآخر، وهو منذ مولده لم يكن يتخيل أصلًا أن هناك جانبًا آخر، بدأ يزحف على بطنه عابرًا الجدار ببطء، أمسكت بتلابيبه خائفة.
"إلى أين تذهب؟ لا تتركنى هنا وحدى".
تردد لثوان ورد:
-"حسنًا، تعالى ورائى".
أخذا يزحفان كفأرين هاربين، كان مجرى الماء ضحلًا فلم يكلفهما الأمر إلى الآن سوى ابتلال ملابسهما، كان يدنو من نهايته، لم يكن ما فى الجانب الآخر قد اتضح بعد؛ فالفتحة ضيقة وبالكاد تتسع للمرور، دنا ودنا وهى من خلفه، تسأله الرجوع فالظلام كان قد حل بالفعل، لكنه كان قد وصل إلى نهاية الجدار، عبره بصعوبة، وقف على قدميه وهى أيضًا، وظلت شفاههما مفتوحة فى بلاهة لدقائق، هالهما ما رأياه، ما أمامهما لم يفهموه ولم يستوعبوه، شعرا وكأنهما قد عبرا بوابة سحرية، لا تفصل مكان عن مكان، بل زمن عن زمن، وعالم عن عالم، وحياة عن حياة، بل الأصح حياة عن ممات.
كانت مدينة أخرى، مضاءة بالكامل، أرضها سهول ومراعى خضراء منبسطة شاسعة واسعة، أشجار من كل نوع، أزهار من كل لون، قصور رائعة الشكل مزدانة، وقباب عالية من ذهب وفضة، كانت مقسمة إلى مراعى للبقر الذى بدا نظيفًا وجميلًا، واسطبلات للخيول كانت تمرح فيها، ومزارع فاكهة وأخرى للزينة، كان كل شىء نظيفًا، كل شىء لامع، كل شىء مشرق، ورائحة المساء، رائحة مسك الليل وأريج لم يشماه من

قبل قط.
كان القمر بدرًا وكان هو الشىء الوحيد الذى يرونه من خلف الجدار، ورغم إنه اعتاد النظر إليه طويلًا فى كماله، إلا إنه بدا مختلفًا تمامًا حين تراه من هذا الجانب، بدا حيًا بشدة، رائعًا بحق، سقطت الفتاة أرضًا وهى تبكى، وارتمى هو على ركبتيه وسالت دمعة صامتة من عينه.
لم يبد أن هذا مساء على الإطلاق، فكل هذا الأضواء اللامعة قد أحالت ليلهم نهارًا، لم يدر أعليه أن يواصل التقدم ويقترب، أم أن عليه أن يعود أدراجه، استنتج بسرعة فى قرارة نفسه إنه لو لم يتقدم ليستكشف المكان الآن فلن يعود إليه مجددًا، كان جاهلًا لكنه لم يكن غبيًا، وبسرعة استقرى الوضع وعرف أى وهم وأى هراء كانوا يحدثونهم به.
أنهضها وأعانها حتى استعادت وعيها.
-"هيا بنا سنقترب من المدينة".
سحبت يدها بسرعة وانكمشت إلى نفسها.
-"لا، لن أذهب إلى أى مكان، أنا لا أفهم شيئًا، أريد أن أعود!"
ظل واقفًا لثوانٍ لا يجيب.
"ما الذى لا تفهمينه هنا؟ نحن فى وهم، نحن محبوسون خلف الجدار!"
"لا، ربما تلك مدينة أخرى وشعب آخر، مستحيل أن يكون حاكمنا يعيش هنا، حاكمنا يحارب".
"من هذا الذى يحارب يا بلهاء؟ نحن من نُدهس هنا بالأحذية، حاكمنا ينعم بتلك القصور والمزارع".

-"لا، لا غير معقول، أنت لا تعرف!"
"حسنًا أخبرينى إذا ما هذا الذى ترين؟ ولم هذا الجدار؟!"
-"دعنا نعود الآن ونناقش الأمر ونرجع مرة أخرى غدًا".
"صدقينى لن يكون هناك غدًا، لو رجعنا لاكتشفوا الأمر وربما سدوا الفتحة فى الجدار".
-"ولو رأونا الآن لقتلونا ولأخفى السر للأبد".
-"تقصدى أن علينا أن نخبر أهلنا؟"
-"بالتأكيد".
فكر مليًا، ربما هى محقة، على الجميع أن يعرف بالأمر، لو عرف الحرس بالأمر لأردوهم فورًا، وحينها كأن لم يكن، لذا قررا أن يعودا أدراجهما ويحدثا أهليهما بما رأيا، المهم أن ما رأياه لن يمر مرور الكرام، لن يمر أبدًا.
فى وقت متأخر من الليل روى كل شىء لأبيه وأمه، وكان أخوه الأصغر جالسًا يستمع، وكذا فعلت هى مع أهلها، لكن أحدًا لم يصدقهما، وطالبوهما أن يلتزما الصمت تمامًا وألا يعيدا الحديث فى هذا الموضوع مجددًا، كان هذا متوقعًا على أية حال.
فى الصباح الباكر التقى بها وحدثها بما جرى، لم يحددا ما الذى يجب أن يفعلاه لكنهما أرادا بشدة أن يعودا إلى هذا المكان، أن يعبرا الجدار مرة أخرى.
وبالفعل فى المساء كانا فى طريقهما مجددًا إلى الفتحة فى الجدار، عبرا مرة

أخرى وانبهرا مرة أخرى، لكن هذه المرة قررا الاقتراب أكثر، قررا أن يدنوا من السر المحرم.
كانا خائفين، بل يرتعدان خوفًا ورهبًا، التصقت به تمامًا وكان سعيدًا فى الواقع، لم يكن لديه أية خطة من أية نوع، كان انبهارهما يقودهما، فلو قابلا واحدًا من حاشية الحاكم الآن لاعتقلهما على الفور، مظهرهما وملابسهما تؤكد بقوة أنهما قد عبرا الجدار للتو، كانا قريبين من إسطبل الجياد، توقفا عند سور الإسطبل الخشبى ولم يدريا ما عليهما فعله.
"حسنًا، وماذا الآن؟"، سألته فى ترقب.
"لا أعرف، لكنى لا أريد أن أعود خلف الجدار!"
"ولا أنا".
"ليتنى أستطيع أن أخذك ونهرب سويًا من هنا".
"لكن لا نعرف حتى حدود المكان!"
فكر مليًا، نظر إلى الجياد، نظر لها مجددًا، وفهمت هى ما يعنيه، احتضنها بقوة وهمس فى أذنها:
-"سأخذك ونهرب سويًا".
-"هل أنت واثق أننا سنتمكن من الفرار؟"
-"لا، لكنى واثق من أنى لن أتركك، ومن أنى لن أعود إلى هناك مجددًا!"
اختار جوادًا ما، من حسن حظهما أن المكان كان خاليًا تمامًا إلا منهما، امتطاه وهى من خلفه، كانت لديه خبرة لا بأس بها فى ركوب الخيل، فالعربات التى تحمل المحصول تُجر بالخيول، وكانت تلك مسؤوليته، أن

يسلم المحصول لرجال الحاكم، خرجا من الإسطبل وانطلقا لا يعلمان وجهتهما.

لشهر أو يزيد لم يبد لهما أثر، لا فى المدينة خلف الجدار، ولا فى القصور أمام الجدار، بدا أنهما قد نجحا فى الفرار، بالطبع تم اعتقال أبيه وأبيها ولم يظهرا مجددًا، ثم أُعلن عن إعدامهما لمخالفة أوامر الرب، تم استجواب أمه وأمها بشدة، لكن تركوهما لحالهما محطمتين تمامًا بعد تعذيب شديد.

فى ظهيرة أحد الأيام وبعد أن هدأت تلك الزوبعة التى أثارها اختفاء شاب وفتاة من المدينة، كانت الأم تستعد كباقى أهل المدينة للخروج من أجل الصلاة، صلاة نصرة الحاكم، كما اعتادوا كل يوم منذ ولدوا، وبدأت الأجراس تدق إيذانًا وأمرًا لكل عبيد المدينة أن يتركوا كل شىء ويتجهوا صوب تمثال الحاكم، تمثال الإله، كى ينحنوا أمامه، يبكوا من أجله، يصلوا لنصرته.

خرج الجميع الجميع، وخلت البيوت كلها، إلا بيت واحد، جلس فيه طفل كان قد بلغ لتوه طور الشباب، طفل اختفى أخوه الأكبر فى ظروف غامضة، وأُعدم أبوه لأسباب لا يعلمها، وصارت أمه شبيهة بالأموات من قسوة ما ذاقته من استجواب وتعذيب.

جلس فى البيت لأول مرة أثناء الصلاة، جلس محاولًا أن يستعيد أحداث ليلة بعينها، ليلة لا تُنسى، جلس يتذكر حماسة أخيه وهو يحدث والديه بشأن أمر ما، جلس يتذكر صدق انفعالاته وهو يصف ما رآه، يتذكر

أنه سب الحاكم، سب إلهه، وإلههم أجمعين، يتذكر غضب والده وأمه، يتذكر إعراضهما عنه.

يتذكر حين ذهب مع أخيه ليخلدا إلى النوم، لم يذوقا النوم ليلتها، أخذ يروى له ويحكى، قال الكثير، قال إنهم يعيشون فى وهم، وإنهم مدفونون هنا، إن هذا الجدار ضلال، وما وراءه الحقيقة الكاملة، قال له إنهم ليسوا عبيدًا وإن حاكمهم ليس إلهًا.

وصف له الجنة التى رآها والقلاع والقصور وما سواها، وصف له أريج الأزهار وجمال الأشجار، حدثه عن الأضواء والحقول والمراعى والسهول، خضراء، كلها خضراء، لا يزال يذكر تلك الكلمة جيدًا.

فى ذلك اليوم قرر أن كلام أخيه لم يكن هباءً، قرر أن هناك شيئًا ما خلف الجدار، قرر أن هذا الوهم لا يمكن أن يستمر للأبد، قرر أن هذا الجدار اللعين عليه أن يسقط، وأن هذا التمثال يجب أن ينسف، وأن الصلوات لا بد أن تتوقف، وتلك الأجراس اللعينة يجب أن تخرس للأبد، وكان يعنى للأبد.

«لم تتم، لكن لا يوجد جزءًا ثانيًا».

خارج هذا الجحيم

بلدة صغيرة جميلة من بلاد القوقاز، سمتها الهدوء، صفتها الطبيعة، أهلها طيبون، حياتهم بسيطة، كان الصيد مورد رزقهم الأساسى، صيد الأسماك بالتحديد، لذا كانوا يقيمون حول النهر وجداوله، فى خيام متينة وأكواخ قديمة، بطول النهر وعلى جانبيه كان الناس يروحون ويجيئون، يعملون ويمرحون، لم يكن الرجال فقط هم من يخرجون لكسب العيش، نسائهم أيضًا كن يساعدنهم فى جلب الطعام وحلب الماعز وإعداد الشباك للصيد، كن النساء هنا يتمتعن ببنية قوية وأكتاف عريضة وروح صبوح مشرقة، بشرتهن بيضاء وجدائل شعورهن ذهبية رائعة تزين رؤوسهن، حول النهر كانت غابات من أشجار الصنوبر تملأ الأفق،

وتحيط بالبلدة من معظم الاتجاهات.
لم يكن فى مخيلة أهل البلدة الوديعون أية فكرة عما وراء تلك الأشجار، كان هذا هو عالمهم الوحيد ولا عجب، فلم يكن هناك حاجة لأحدهم أن يتعدى حدود النهر وما حوله إلى الخارج، كانوا يتصورون أن تلك الأشجار تمتد إلى الأبد، إلى ما لا نهاية، العالم كله غابات، كله صنوبر، باستثناء بقعة الأرض تلك، وبقعة أخرى كانوا يذكرونها من آن لآخر فى أحاديثهم، يحكون عنها فى أساطيرهم، أسطورة تبدو خيالية، لكنها حقيقية، قديمة قدم الزمان، راسخة كالجذور بالأذهان، تناقلها الأجيال ولا تزال، صدقها الجميع وآمن بها الكل، لا لشىء سوى لأنهم قد رأوها رأى العين.
تقول الأسطورة أن هذه البلدة التى يعيشون عليها منذ أسسها الأجداد قد أُطلق عليها مدينة العشاق، لا يسكنها إلا العاشقون ولا يمر بها إلا المشتاقون، وذلك لأن أول من عسكر بها كان شاب وفتاة فرا من جحيم حرب وقعت فى إحدى دول شمال آسيا، لم يكن الفتى يعرف إلى أين يذهب، وإلام يفر، فقط أيقظها فى منتصف ليلة مقمرة، والحرب تدور بالخارج حامية الوطيس، أصوات الصرخات لا تتوقف، ورائحة البارود تزكم الأنوف.
-"إلى أين سنذهب؟"، سألته وهى ترتجف خوفًا وبردًا.
-"لا أعرف، أى مكان خارج هذا الجحيم".
ظلا يركضان أميالًا، لا يحملان سوى قربة ماء وكسرة خبز، بعد ثلاثة

أيام من القفز فوق الصخور، وعبور الأنهار والجداول، انتهى بهم المسير إلى تلك البقعة من الأرض، التى صارت فيما بعد مدينة العشاق، كانا أول بشريين يطآن المكان هنا، بنيا كوخًا صغيرًا من الخشب، بدأ يصطاد الأسماك من النهر، وكان هذا هو ما أنقذهما، عاشا سويًا لسنوات، صارت تلك جنتهما الصغيرة، لا أحد يعكر صفوهما، ولا شىء يدنس جنتهما.

وفى أحد الأيام قرر أن يصطحبها ليتجولا قليلًا حول المكان، يستكشفاه لأول مرة، سارا قليلًا متشابكى الأيدى وسط أشجار الصنوبر العالية، صعدا تل صغير، خلف التل كانت أرض فضاء، خضراء اللون جميلة، تكسوها حشائش طبيعية، وكان هذا غريب جدًا، ويتنافى مع طبيعة المنطقة الصخرية القاسية، سارا قليلًا داخل الوادى البديع، رأى سعادة غير عادية فى عينيها، كانت تقفز طربًا وفرحًا، وكان هو أكثر سعادة كلما رآها تبتسم، فى وسط الوادى بالضبط نبتت وردة صفراء فاقع لونها، جميلة كانت، رقيقة بدت، جثيا على ركبتيهما يدنوان منها، وسط تلك المساحة الخضراء بدت وكأنها قد نبتت خصيصًا من أجلهما، أول زهرة فى الوادى، وأول قصة حب على ضفاف النهر، كاد أن يقطفها فأمسكت يده بلهفة تمنعه.

-"لا، دعها، هى نبتت مع نبض قلبينا، لو ذبلت لانتهت قصتنا".

أراد أن يبتسم ظنًا منه أنها تمزح، لكن التعبير على وجهها لم يوح أبدًا أنها تمزح.

-"حسنًا، ستذكرنا ومن بعدنا إذًا بقصتنا".

-"نعم بالتأكيد"، قالتها وهى ترتمى بين كتفيه فى سعادة.

مرت أشهر، لم يجد جديد، سوى أنهما رزقا بطفلة جميلة كأمها، نسخة من عينيها الزرقاوتين الواسعتين، نفس الشعر الذهبى اللامع، ونفس الوجه المشرق الجميل، فى تلك الأثناء جائهم زائرون، أول مرة منذ أن وصلا هنا، شاب آخر وفتاته، وكانت صحبة رائعة، لأنهما قررا المكوث حول النهر أيضًا، بنيا كوخًا جديدًا، وبدأت قصة أخرى على ضفاف النهر الجارى، ولعجبهما فقد نبتت زهرة أخرى فى الوادى خلف أشجار الصنوبر، صفراء أيضًا، رائعة كذلك.

-"ألم أقل لك!"، قالت له فى فخر.

-"إذًا لكل عاشقين زهرة؟"

ابتسمت وهى تقبله:

-"نعم يا عزيزى، لكل عاشقين زهرة".

-"إذًا سنطلق عليه وادى العشاق!"

-"وادى العشاق، وبلدة العشاق، لا يدخلها إلا العاشقون، ولا يمر بها إلا المشتاقون".

ومن هنا بدأت الأسطورة تتناقل وتتوارث بين الأجيال، فقد وصل البلدة مزيد من العشاق، ونبتت المزيد من الورود الصفراء، حتى استحال الوادى كله أصفر زاه يسر الناظرين، عشرات بل مئات الأكواخ بنيت، حياة كاملة قد أسست، وظلت البلدة لسنوات وسنوات تنعم بالهدوء والسلام، يخيم عليها الحب والوئام.

فى أحد الأيام جاء البلدة زائر غريب، يبدو من إحدى مدن أوروبا، كان اسمه والتر، عرف نفسه بلغة روسية ركيكة على أنه باحث فى إحدى الجامعات، وأنه مهتم بالقبائل التى تعيش فى تلك المنطقة بالذات،
كان أهل المدينة يفتحون أبوابهم لأى زائر جديد ما دام يرنو إلى خير لا إلى شر، رحبوا به وأحسنوا ضيافته، كان المقرر أن يمكث لثلاثة أسابيع، يلاحظ أحوال معيشتهم، يدون سلوكهم وعاداتهم، والأهم أساطيرهم.
كان يجالس العجائز منهم، وهذا لسببين، لأنهم معظم النهار يقضونه أمام النهر لا يفعلون شيئًا سوى مراقبة المياه تجرى فى هدوء وصمت لا أكثر، فبإمكانه أن يجالسهم لساعات ولا ضير، السبب الثانى أنهم لكبر سنهم كانوا على علم بماضى البلدة وحكاياتها القديمة وأساطيرها التى لا زالت عالقة بالأذهان.
فى أحد الأيام حدثته امرأة عجوز بشأن قصة الوادى والأزهار الصفراء التى لا تموت، ظن أنها مجرد قصة خيالية من وسط مئات القصص، وقد بدا من ابتسامته وهى تروى أنه لا يصدق أيًا من تلك الخرافات، كانت المرأة على سنها هذا ذكية، وقد لاحظت أنه لا يصدق ما ترويه، فابتسمت فى ثقة قائلة:

-"اتبعنى".

قال مدهوشًا:

-"إلى أين؟"

-"إلى الوادى، وادى العشاق".

لم تنتظر جوابه، قامت من مجلسها متكئة على عصاها، وسارت تمشى الهوينى، وهو يتبعها فى عجب وصمت.

عبرا أشجار الصنوبر بسهولة، صعدا التل بلا مشقة تذكر، ومن علٍ بدا له السهل أصفر اللون رائعًا، رائحة أريج رقيق تفوح منه، الأزهار يانعة مشرقة، تلاصقت وتزاحمت فى غير عشوائية، بل بتنسيق وترتيب رائعين، بدا المشهد خلابًا، ظل واقفًا لدقائق يمتع عينيه بالمشهد، ثم جال فى باله أن هذا لا يثبت الأسطورة، فمن الممكن جدًا أن هذا الوادى وتلك الأزهار كانت موجودة منذ زمن، وأنهم ابتدعوا الرواية وحبكوا الأحداث.

لم يخبرها بما فى باله وهى لم تسأله أصلًا، آمنت أنه قد صدق الأسطورة، عادا أدراجهما وبات ليلته يدون ما رأى ويفكر فيما سمع، كان من المفترض أن تنتهى أيام رحلته بعد غد، قرر أنه لم يعد هناك المزيد لرؤيته فارتأى أنه ربما يحزم حقائبه ويرحل غدًا، استراح لقراره ونام مرتاح البال بلا صوت بالخارج، باستثناء صوت الطبيعة وحفيف الأشجار.

فى صباح اليوم التالى أخبرهم بنيته على الرحيل، أظهروا تمسكًا به لكنه كان قد اتخذ قراره، أعطته المرأة العجوز قلادة من خشب كهدية أو تذكار، وملأوا حقائبه بأطعمة سمك ولحم مقدد من أجل رحلته الطويلة، شكرهم وأعد نفسه للرحيل، كان فى غرفته يُنهى آخر استعدادته عندما سمع جلبة بالخارج، صوت ضجيج وحديث ودود يتعالى، كان هذا غريبًا فالبلدة طوال الوقت هادئة كنسمة هواء تمر.

خرج من كوخه يتفقد الأمر بالخارج، لم يحتج الكثير من الوقت كى يدرك أن هؤلاء زائرون، لكن أى زائرون هم، بل قل أنهم محاربون، لولا تلك الابتسامة على وجوههم لظننت أنهم قد جائوا ليحتلوا البلدة ويسرقوا أهلها، كانوا رجالًا ونساء، كلهم عراة الأكتاف والسيقان، وقد برز منها العضل والفتية والقوة، كانت أجسامهم رائعة، وملامحهم أيضًا، ندية ونبل فى ملامح الرجال، صبر وجمال أخاذ علا وجوه النساء، حين تراهم تظل منتبهًا ناظرًا لأعينهم الزرقاء الرائعة، وأجسادهم البرونزية اللامعة، كان مشهدهم وهم يسيرون بتؤدة وثقة يثير الهيبة، ويضفى عليهم من القدسية والاحترام، كانوا يحملون عتادًا وأسلحة، دروع وبنادق بدائية، يبدون مرهقين، بعضهم كان مصابًا وينزف بالفعل لكنه صامد.

ظل موكبهم يشق وسط البلدة فى ذهول وصمت من أهلها، الذين تحولقوا حولهم يراقبونهم بأفواه مفتوحة وإعجاب يضرب النفوس.

بدأ كبيرهم بالحديث بصوت جهورى رخيم موجهًا كلامه إلى الجميع:

-"سلام عليكم يا أهل البلدة، نحن جئنا من أقصى الشمال، جئنا فى سلام".

لم يكن فى حاجة لذكر ذلك، فلم يبد عليهم أبدًا أنهم أهل شر، أو أنهم جائوا من أجل خراب أو أذى،

بدأ أهل البلدة بتبادل الحديث معهم، على جديتهم ورزانتهم كانوا ودودين جدًا، تفرقوا فى البلدة فى دقائق، كلٌ اتخذ له صاحب، وأهل البلدة كانوا مضيافين كرماء، فما كان منهم إلا أنهم فتحوا لهم أبواب أكواخهم، قدموا

لهم الطعام والشراب، فى الواقع كانوا يرحبون بأى زائر يأتى، فما بالك بهؤلاء القوم المثيرين للاحترام والتوقير والفضول.
علموا منهم أنهم تابعون لسرية تابعة لما يشبه قوات دفاع مدنية، وأنهم كانوا يتحركون صوب معسكر آخر ليجتمعوا بسرية أخرى، لكنهم ضلوا الطريق وسط الغابات، وقد نفد منهم الطعام والماء، بالإضافة لعدد من الجرحى فى حاجة لراحة.
لم يدخر أهل البلدة جهدًا لخدمتهم، فقد داووا جرحاهم، وقرروا الخروج لاصطياد كمًا كبيرًا من الأرانب البرية والوعول، فقد اتفقوا أن يُعدوا حفل شواء كبير الليلة احتفالًا بالغرباء الجدد، وقد كان ما قرروه بالفعل، فقبل حلول المساء قد جىء بعشرات الحيوانات البرية الصالحة للأكل، وبدأوا فى إعداد الأحطاب والنيران للشواء، بدت البلدة وكأنها فى احتفال أو عيد، فقد كان الجميع سعيدًا متحمسًا.
أما هو فقد استثاره الفضول وقرر البقاء ليلة أخرى، عله يجد فى هؤلاء القوم غريبو الشكل والملامح ما يسجله فى ملاحظاته، ربما تحدث إلى أحدهم، علم من أين أتوا، دوّن شيئًا من عاداتهم.
جاء المساء برائحة الشواء شهيًا، وضربت الموائد فى كل ركن من أركان البلدة، الصبية والأطفال، الرجال والشيوخ، الكل كان سعيدًا بهذا الضيف غير المعتاد، وكان ترحيبهم كبيرًا حين علموا أنه سيبقى معهم تلك الليلة، بدأ الحفل مبكرًا، جىء بكثير من الشراب، وزعت كميات كبيرة من اللحم المشوى الشهى على الجميع، تبادل الجميع الأحاديث الودودة،

واختلط الجمع واندمج بسرعة مثيرة للدهشة فى الحقيقة، تعالت الصيحات والضحكات، وكأنهم لا يعرفون بعضهم البعض إلا منذ ساعات.
تناول قطعتين صغيرتين من اللحم، ولم يتناول شرابًا، لم يحب أن يبدأ رحلته الطويلة غدًا برأس يدور، أخذ يتجول بين الجمع، على أضواء النيران المشتعلة، الرجال مع النساء، شعر أن الضجة تعلو، والصيحات بدأت تتجاوز حدود المعقول، أما الضحكات والقهقهات فكانت تشى بأن القوم صاروا سكارى، نظر مليًا فإذا هم صاروا سكارى فعلًا.
حتى أن بعضهم كان يسقط أرضًا من شدة ما ضرب الشراب رأسه، رأى بعض الرجال من البلدة وقد انفرد كل منهم بفتاة من الضيوف الغرباء، وبدا توددهم لبعضهم البعض أكثر من اللازم، رأى بعض من الرجال الغرباء يدخلون الأكواخ ويغلقون الأبواب ورائهم، ولم تكن الأكواخ خالية فيما يبدو، رأى قبلات هنا وهناك، كان الأمر غريبًا حقًا، هل هم معتادون على هذا أم ماذا، تساءل بلا مجيب.
لم يبد أن أحد قد اصطحب زوجته فى هذا اليوم، بل ما بدا له أن رجال البلدة قد فروا إلى نساء الوافدين الجدد، وأن الرجال الذين وصلوا اليوم قد باتوا الليلة فى أكواخ أصحابها، فى أحضان زوجاتهم، رأى ما اقشعر له بدنه وما استحت له عينه، كان رأسه يدور بشدة، رائحة سكر وعفن قد ضربت البلدة وأزكمت أنفه، جرأة وفحش قد بدا فجأة بين رجال البلدة ونسائها، ما الذى يحدث بحق الجحيم، كان هذا سريعًا حقًا، الحفلة قد بدأت للتو، البلدة كلها قررت أن الليلة هى ليلة فراش، وليس أى فراش،

فراش خيانة فيما بدا، لم يحتمل ما يرى، أخذ حقيبته من الكوخ غاضبًا، مقررًا الرحيل نهائيًا بعد أن أفسد ما شاهده اليوم كل مخيلته عن أهل البلدة الطيبيين، حمل حقيبته وهرول مبتعدًا عن رائحة النجس وأصوات العهر تعلو فى المكان."كان هذا مفاجئًا فعلًا، منذ ساعة كان الوضع طبيعيًا تمامًا، تبًا! ما الذى حدث؟!"، قال محدثًا نفسه.

كان الظلام قد ضرب المكان منذ ساعات، ولم يتمكن من تحديد أية جهة عليه أن يسلك، سار خلف الغابات، ناحية الشمال، مهتديًا بضوء القرص الفضى الذى كان بدرًا، أخذ يصعد عدة أحجار قاسية، وصل إلى قمة تل صغير، فانكشف أمامه ذلك الوادى الذى كان قد زاره صباح اليوم، وادى العشاق أو الزهور، وقد هاله ما رآه.

كانت الورود كلها قد ذبلت، استحال لونها أسود كئيبًا، ومالت على جنوبها، انكمشت على نفسها، تقشفت وتشققت، هبط إلى الوادى يسير بين أطلال الزهور، كان مشهد مؤسف وكئيب، تبًا ما الذى حدث هنا، دار حول نفسه ودار، ربما هى زهور كعباد الشمس تأفل بأفولها؟ احتمال لا بأس به، أدعى للتصديق من تلك الأسطورة السخيفة.

لكن الأمر يبدو منطقيًا بشأن الأسطورة، فالخيانات تجرى بالأسفل على أشدها، والشيطان سعيدٌ بهم الآن بالتأكيد، لو أن لكل علاقة أصيلة وكل قصة حب زهرة فلا عجب أن الزهور كلها قد ذبلت وماتت، كان هذا التفسير منطقيًا أيضًا، لكن بعد أن رأى تلك الزهرة فى المنتصف تأكد أن تلك الرواية هى التفسير الحقيقى لما يجرى بالفعل، كانت صفراء كما

هى، يانعة كما رآها فى الصباح، منتصبة شامخة كعهدها، حسنًا هناك من لا يخون بالأسفل، يا إلهى، هل من الممكن حقًا أن تكون تلك الأسطورة حقيقية، هكذا تساءل بلا مجيب، هنا قرر أن يعود أدراجه، سيعود مجددًا إلى البلدة الساكر أهلها، علّه يجد صاحب أو صاحبة تلك الوردة، أو كلاهما.

بالفعل بدأ يهبط التل ثم الصخور، عبر الأشجار فى الظلام، دلف البلدة من جديد، كانوا ما زالوا سكارى فى ما يفعلون يعمهون، لم يكن يصدق عينيه ولا أذنيه، الكل يضرب فى الفجور، الكل منتشى لا يدرك ما الذى يفعله، الرجال والنساء شبابًا وشيوخًا، كان الأمر مقززًا.

أخذ يفتش فى البلدة على البيت الوحيد الذى لم يضربه الجنون، كان يتمنى أن يجده حتى تصدق الأسطورة، لو وجده حقًا لكان هذا أغرب شىء تراه عيناه، لم يكن يتوقف كثيرًا على ما تقع عليه عيناه، يمر مرور الكرام، يبحث سريعًا عن شخص يجلس وحده، أو بيت لا تصدر منه تلك الأصوات الرهيبة، بعد حوالى نصف ساعة من البحث، عثر تقريبًا على ضالته، بيت هادئ، ربما لا أحد بالداخل، طرق الباب برفق، لا رد، دفع الباب ببطء، ولج للداخل، كان هادئًا تمامًا، شعلة نار معلقة تضىء جزء من المكان،

على طاولة فى المنتصف، رآها، جالسة صامتة كقبر، لا ملامح على وجهها، انعكاسات اللهب وخيالاته زادتها غموضًا، نصف وجهها مضىء، معالم وجهها توحى أنها جميلة، وإن بدت حزينة، أجفلت حين رأته،

نظرت له بعين نارية أوقفته فى مكانه.
بصوت ناعم لكن قوى سألته بنبرة اتهام واضحة:
-"لم لست معهم؟!"
أجاب بسرعة:
-"لم أنت لست معهم؟"
حركت يديها فى انتباه وتساءلت:
-"من أنت؟"
-"والتر، غريب عن البلدة".
ظلت تنظر له على ضوء اللهب تتفحصه، لم تنطق فأكمل حديثه:
-"وصلت منذ عدة أسابيع، وكنت أهم بالرحيل حتى جاء هؤلاء القوم غريبو الشكل والأطوار".
أطرقت كمن تفكر فى أمر محير وقالت:
-"عجيب!"
-"ما هو العجيب؟!"
لم تجب، بل ظلت على حالها، فسألها مجددًا:
-"هل لديك أية فكرة عن هذا الجحيم الذى يجرى بالخارج؟ هل هذا طقس تفعلونه كل عام أو ما شابه؟"
أجابت وقد توترت بعض الشىء:
-"لا، ليس طقسًا".
نظرت له تتفحصه ثم قالت فى عجل:

"يبدو أنك كنت فى طريقك للرحيل، ألا فلترحل الآن، أرجوك!"
-"لن أرحل قبل أن أفهم ما الذى يجرى، ثم ما أمر ذلك الوادى، أتلك الرواية التى سمعتها حقيقية؟"
لثوانٍ لم تجب، ثم قالت:
-"نعم، هى حقيقية بالتأكيد، ما الذى تريده بالضبط؟!"
لكنه تجاهل سؤالها وأكمل:
-"هل تعليمن أن كل الزهور فى الوادى قد ذبلت؟"
نظرت له بسرعة تقاطع حديثه أو تكمله:
-"أعرف، كلهم إلا زهرة واحدة".

فما كان منه إلا أن أصابه عجب فوق عجب، اقترب منها ببطء واتخذ مقعدًا مقابلًا على الطاولة، سألها متعجبًا:
-"سحقًا، كيف علمتِ هذا؟"
-"بالتأكيد أعلم هذا، فتلك الزهرة هى لى ولزوجى الغائب".
-"زوجك الغائب؟! لا أفهم شيئًا، هلا كنتِ أكثر وضوحًا من فضلك؟"
امتعضت قليلًا وأشاحت بوجهها عنه ثم قالت:
-"أرجوك، لم يعد يشكل هذا فارقًا، ارحل أرجوك قبل أن يفيقوا مما هم فيه".
-"يفيقوا مما هم فيه؟! إذًا أنت تعلمين ما هم فيه؟! ما الذى يحدث بحق الجحيم؟! أنتِ تخفين شيئًا!"

قال جملته الأخيرة غاضبًا بعض الشىء.
أطلقت زفرة حزن أو تنهيدة هم وبدأت حديثها، تروى فى حزن قد زادها جمالًا على جمالها:
-"بدأ كل شىء عاديًا، كان هذا منذ ثلاث سنوات تقريبًا، جئت أنا وزوجى إلى هنا، بنينا كوخنا واندمجنا بسرعة مع أهل البلدة، قضينا أيامًا ممتعة معًا، حتى جاء يوم خرج فيه زوجى مع عدد من رجال البلدة للصيد كالعادة، لم يكن هذا الأمر خطيرًا، فمعظم الفرائس كانت من الأرانب البرية والأيائل وما شابه، ولم يحدث أن فقد أحدهم أثناء خروجه للصيد، وفى هذا اليوم كما رُوى لى أنهم افترقوا داخل الغابة كى يغطوا أكبر مساحة للبحث فى وقت أقل، وحين اجتمعوا لم يظهر زوجى، ظلوا بانتظاره حتى انقضى النهار لكنه لم يأت، وحين قفلوا عائدين للبلدة كانت معهم الفرائس ولم يكن زوجى معهم، بالطبع افترضنا أنه ربما قد ضل الطريق وسيظهر بعد حين، لكن منذ ذلك اليوم لم أره مجددًا، كنت أذهب كل يوم إلى الوادى كى أتأكد أن زهرتنا ما زالت حية، فأنت تعلم أنه لو مات أحد الطرفين، أو لو خان أحدهما الآخر ذبلت الزهرة وماتت.
صمتت لدقيقة كأنها تستريح وتلتقط أنفاسها ثم أكملت:
-"ومنذ أن اختفى زوجى والزهرة لم تذبل ولم تمت، فقد ظللت أنا مخلصة له، وهو ما زال على قيد الحياة، أنا أعرف هذا ومتيقنة تمام اليقين".
ظل صامتًا لدقائق يستوعب ما تلقته أذناه وعقله الذى كان يأبى أن يصدق تلك القصة وإن بدت هى صادقة فى كل ما قالت.

سألها متعجبًا:

-"حسنًا، تلك قصتك، فما بال هؤلاء السكارى بالخارج، أنا أعرف إنك تخفين شيئًا ما، هيا عزيزتى أخبرينى ما الذى يحدث".

كانت لا تزال تلك الأصوات اللعينة تصدح بالخارج وتتعالى؛ وكأن شياطين العالم وأبالسته قد اجتمعوا سويًا فى تلك الليلة السوداء الطويلة.

-"هل أنت مصر أن تعرف؟!"

-"نعم، هيا، مم تخافين؟ أنا راحل على أية حال، أريحينى أراحك الله!"

بدت مترددة لكنها بدأت تروى مجددًا:

-"حسنًا، منذ أن اختفى زوجى وبعد أن تيقن الجميع أنه فى الأغلب لن يعود مرة أخرى، بدأ الرجال فى البلدة بالتحولق حولى، كان كل منهم يتودد إلىّ، يحاول التقرب منى، كلمات معسولة صرت أسمعها على ألسنتهم، كانوا مصرين حقًا، لم أكن أترك لهم الفرصة للمزيد من الاقتراب، كنت أوبخهم وأعنفهم، أتهرب منهم وأترجاهم أن يدعونى وشأنى، فما كان منهم لما رأوا منى هذا التمنع والإباء إلا أنهم بدأوا فى إيذائى، فكانت المضايقات والتلسين أمر يومى، وكذا زوجاتهم لما ظنوا أننى من كنت أحاول غواية أزواجهن، فصار رجال القرية ونسائها يروننى امرأة باغية غير صالحة، وكثر الكلام من حولى والمضايقات لا تتوقف ولا تقل، حاولت أن أُفهمهم أننى صرت وحيدة وأنهم الآن سندى وأننى لم أعد أملك سواهم، لكنهم أصروا على ما فى نفوسهم المريضة وبغوا وضلوا وتمادوا فيما هم فيه".

سكتت فجأة، وسمع هو تشنجات متقطعة، فقد كانت تبكى،

شعر بالشفقة عليها وتمنى لو ربت على كتفها لكنه عدل عن الفكرة.
استعادت نفسها وأكملت:
-"فما كان منى إلا أن حاولت الهروب من البلدة، لكنى قررت أن أنتقم منهم أجمعين أولًا، وبعدها أفر إلى أى مكان، فأعددت مادة عشبية كنت على علم بها لأن فى بلدتى النائية حيث ولدت كان أبى يعمل مزارعًا وكان يفقه فى تلك الأمور، كان يخلط أعشابًا ما ليصنع منها عطرًا أو علاجًا وأشياء من هذا القبيل، ومما ما زلت أذكره من وصفات أبى كان تلك الوصفة اللعينة، التى كان يسميها وصفة الشيطان، فهى تُسكر سُكرًا مبينًا، وتذهب بالعقل إلى أبعد مدى تتخيله، وبها ما يثير النفس ويفجر تمردها على كل شىء وأى شىء، لا أدرى حقًا كيف هو مفعولها بتلك القوة والفجور، لكنها حقًا وصفة ملعونة، وهكذا قررت أن أنتظر يومًا يكون فيه حفل أو ما شابه وحبذا لو كان هناك غرباء، كى يأكل الجميع ويشرب، وكى أدس لهم ما صنعت يداى فيما يأكلون ويشربون، وها أنا ذا قد نفذت مخططى، وجعلتهم يرون بعضهم فى أحضان البعض، كلهم خائنون، كلهم دنسون، وحين يستفيقون سيتبينوا هذا بالتأكيد، سيفضحوا أمام أنفسهم، سيعلمون أنهم ليسوا بالطهر والطيبة التى يبدون عليها، سأجعلهم يستحون أن ينظروا فى وجوه بعضهم البعض، وقد كنت أظن أننى سأستمتع برؤيتهم يعمهون فى فجورهم ودنسهم، لكن فوجئت بحزن عميق يصيبنى، وإذا بتلك التأوهات اللعينة كأنها سهام تقتلنى، فظللت جالسة على مقعدى داخل الكوخ، لا أقوى على الهرب كما

خططت، ولا حتى أقوى على التفكير فى خطوتى المقبلة".
بدا أنها قد أنهت روايتها، وهو لم يكن من بد أمامه إلا تصديقها، فروايتها مقنعة وصوتها لا يخالطه نبرة كذب، فكر مليًا وكانت فكرة ما تلوح فى رأسه، وقد كان مترددًا أيخبرها بها أم لا .
نظر لها مليًا، وظلت هى تنظر له لا تفهم علام يلوى.
قام عن مقعده فجأة، اقترب منها مادًا يده لها.
-"عزيزتى، لو أفاقوا الآن لدفنوكِ حية، هيا بنا".
-"إلى أين؟"
-"أى مكان خارج هذا الجحيم!"
-"هل تعنى هذا حقًا؟"
-"نعم بالتأكيد، ستعودين معى إلى إنجلترا، ستحبينها بالتأكيد، هيا بنا، الوقت ليس فى صالحنا".
بدت مترددة بشدة، وكأنها ترتجف:
-"حسنًا، حسنًا، لكن، هل أخذ حاجياتى أولًا؟ هل سنحتاج طعام أو شراب؟"
قاطعها قائلًا:
-"عزيزتى، معى كل ما نحتاج، لا تقلقى".
نظرت لعينيه مباشرةً، ونظر لها، كانت ممتنة بشدة لقراره، فقد كانت تجلس منذ دقائق فى كوخها خائفة فى انتظار مصيرها.
ولثوانٍ تذكرت الجد الأكبر مؤسس البلدة حين هرب بحبيبته ليلًا من

ويلات جحيم الحرب، كان ما يجرى معها مشابهًا وإن كانت هى تفر من جحيم البلدة، لا إلى نعيمها.

تناول يدها، خرجا من الكوخ، كان القوم لا زالوا سكارى، وكانت المشاهد لا زالت مخزية، قال يسأل، أى وصفة تلك، يا إلهى، ظلا يركضان سويًا، يعبران الأجساد المتلاحمة، يتجنبان الطرق المسدودة، يقفزان ويتلويان، حتى وصلا إلى أعلى التل، عبرا على الأزهار الميتة الذابلة، تحت ضوء القمر الفضى الزاهى، وابتعدت الأصوات شيئًا فشيئًا، حتى لم يعد هناك سوى صوت أنفاسهما، سويًا، وإلى الأبد.

وحتى نهاية تلك الليلة الظلماء، كانت البلدة ترتع فى مستنقع الفوضى والمجون، حتى ساعة متأخرة من الليل، وقبل سويعات من شروق الشمس، كان الجميع قد سقط مغشيًا عليه، وعلى مسافة من البلدة، كان الوادى يبدو من بعيد غامضًا، كان ضباب كثيف قد حل وخيم عليه، لم تكن الزهور تبدو على الإطلاق، فقد كان الضباب كدخان أبيض كثيف، لكن عن كثب، إذا اقتربت ترى ما يبدو وكأنه لونٌ أصفر باهت بفعل الضباب يملأ الأرجاء، ما يبدو وكأن الزهور قد عادت إليها الحياة بمجرد انتهاء تلك المهزلة غير المقصودة، لكن، وإذا دققت النظر تجد أن الوادى كله قد عادت إليه روحه، كل الزهور قد زهت من جديد، باستثناء زهرة واحدة، فى منتصف الوادى تقريبًا، كانت ذابلة تمامًا، مسودة وميتة، ولك أن تتساءل أين صاحبة تلك الزهرة، وفى أحضان من قد قضت ليلتها.

فى إحدى شرفات بناية عريقة فى مانشستر، كان والتر يتسلى بمراقبة الطريق والناس والسيارات، جاءته من الخلف فى صمت، بعطر ساحر أثار لبه، طوقت رقبته بذراعيها، وطبعت قبلة على خده، كان سعيدًا جدًا، وكانت هى أيضًا، قررا البقاء سويًا، أما زوجها فلم يبد أنه سيعود مرة أخرى، وأما الزهرة فقد ذبلت للأبد، وأما صاحبتنا فقد بدا أنها ستحيا حياة سعيدة للأبد، بالتأكيد للأبد.

الجمعية الغامضة

وسط الثلوج وقف المتحرى فاليرى مزمجرًا أمام تلك الجثة التى تفترش الطريق منذ ساعات، لا أحد يدرى ما حدث، استدعوه بسرعة، الليلة كانت عيد القداس، كان من المفترض أن يكون على مقعده الوثير أمام المدفأة الآن.

كانت الجثة لرجل هرم، بدا من ملابسه صعلوكًا متسكعًا، كان سيذكر فى تقريره أنه سكير آخر أطاح الخمر برأسه ومات بردًا، كان سيكتب هذا ويعود إلى مقعده؛ لكن المشكلة أن الجثة كانت بدون رأس على الإطلاق أعطى أوامره أن يجدوا الرأس التائه، من الصعب أن يكون هناك سفاح مخبول يجمع الرؤوس،

تلك أول مرة يحقق فى حادثة كتلك، فتش فى ملابسه القذرة، لم يكن معه نقود أو أية ورقة تخبره من هو، فقط عثر على دفتر صغير قذر، قلب الصفحات سريعًا، كانت مكتوبة بخط متمايل غير منتظم، اقترب من مصباح على جانب الطريق، كان الخط صغيرًا؛ بصعوبة تمكن من قراءته.

أول ورقة فى الدفتر:

"لم أعتد أن أكتب أى شىء، لكنى لم أعد أجد من أتحدث إليه، سأجن! لم يعد معى أحد، أصدقائى كلهم تخلوا عنى، حتى فاديم! اللعنة! لكنى لا ألومه، لا يمكننى أن ألومه، هذه الجمعية يجب أن أتركها، لقد تخطوا كل الحدود، ما الذى صرنا نفعله بحق الجحيم، نحن نلعن كل المقدسات، ونمارس كل المحرمات، أتغاضى عن هذا وأمارسه معهم منذ سنوات، لكن الأمور بدأت تخرج عن السيطرة".

تخطى خمس ورقات تقريبًا:

"اليوم طلبوا زوجتى، أعطيتهم إياها وعادت لى آخر اليوم خائرة القوى، تقول إنها قد استمتعت بالحفل، أعرف أنها تكذب".

منتصف الدفتر:

"بالأمس منحنى بوركولوف ابنته الكبيرة، لم أفعل أى شىء معها، هذا مريع حقًا! ما الذى نفعله بحق الشيطان؟!!"

الورقة التى تليها:

"قد بدأوا يشكون فى ولائى للجمعية، الجميع يجب أن يكون قادرًا على

فعل أى شىء، أى شىء، هذا قانونهم، سيجرون لى اختبارًا، أشعر بهذا".
الورقة التالية:
"بالفعل، بالأمس طلبوا منى أن أقتل عجوزًا يعمل حوذى، لم أقتل من قبل، كما أن صحتى لم تعد كما كانت،
زوجتى طلبت منى أن أنفذ طلبهم، إما هذا وإما الطرد من الجمعية، وحينها سيتخلصون منى أعرف هذا جيدًا".
قفز ثلاث ورقات وقد بدأ يتوتر:
"بالأمس ذهبت للعجوز ناكافا، كان يقوم بإطعام حصانه، ما أن رآنى حتى تهلل وجهه واحتضننى، كنا نعرف بعضنا جيدًا فى الماضى، أدخلنى منزله البسيط وأحضر لى حساءً ساخنًا أعدته زوجته، قضيت معهما وقتًا قصيرًا وكنت متوترًا جدًا وعيناى تدوران، كانا طاهرين وشريفين، منذ وقت طويل لم أحظ بلحظات خالية من النجس كتلك".
آخر ورقة فى الدفتر:
"لم أفعلها ولن أفعلها، زوجتى عنفتنى، شيطانة هى الأخرى، سأخرج، لا أعرف ماذا سيفعلون بى، فليسامحنى الله، فليسامحنى الله!"
أغلق نيكاتا الدفتر ودسه فى معطفه، شعر بغم شديد وإحساس موحش يقبض على صدره، طلب منهم أن يرسلوا شخصًا غيره، وأعلن أنه متعب ويشعر بإعياء شديد، دلف إلى منزله، جلس أمام المدفأة، ودار فى باله كل ما اقترفه هذا العجوز، وهذا العذاب الذى كان يشتعل فى صدره، وظل محتفظًا بالدفتر فى يده.

(أ)

فى السابعة صباحًا استيقظ (أ) من نوم لم يذقه أصلًا، العرق يغطى وجهه ورقبته، شعره مبعثر، والتوتر يغمره ربما أكثر من العرق ذاته، ميعاد الجلسة التاسعة بالتمام والتأخر أو عدم الحضور يعنى حتمية ضياع أخر ملاذ، أخر مأوى، أخر فرصة للبقاء على قيد الحياة مثل بقية البشر، يعنى ضياع بيته والحكم لصالح زوجته السابقة بأحقيتها فى المنزل.

بنفس مضطربة ارتدى ملابسه، وبيد مرتعشة احتسى قهوته، وبخوف يكاد ينقلب رعبًا ألقى نظرة ربما تكون الأخيرة على بيته، أغلق الباب وولى وجهه شطر المحكمة، فى الجلسة قالوا كلامًا كثيرًا، فى الجلسة أرغوا وأزبدوا، فى الجلسة هاجوا وماجوا، فى الجلسة ظل هو صامت كالقبر، يمر

على قلبه بل وعلى أذنيه كل هذا الكلام مر الكرام، لا يسمع أو أنه لا يريد، لا يفقه أو أنه لا يرغب، كل همه وشغله الشاغل لحظة النطق بالحكم.
فى غياهب المرافعات ودهاليز الدفاع، سرح (أ) بباله بعيدًا، ومضى بالزمن إلى الوراء بضعة أشهر، ما زال يذكر ذلك اليوم الملعون بكل تفاصيله، وكيف له أن ينساه وهو الغمامة التى كدرت حياته، هو القِدر الذى امتلأ غمًا وهمًا ونحسًا، ثم مال هذا القِدر فصب على رأسه وحياته لعنات الدنيا والآخرة، فاحتالت حياته جحيمًا مقيمًا.
ظل(أ) لساعات سارحًا بخياله، منفصلًا تمامًا عن الواقع، محلقًا فى اللاشىء، تدور بذهنه أفكار وتساؤلات فلسفية غريبة، كيف كان؟ وكيف سيكون؟ والأهم لماذا؟ لماذا طردوه من الشركة؟ لماذا لم يعثر على وظيفة بديلة؟ لماذا تخلى عنه ابنه الأكبر؟ لماذا لم تسانده زوجته فى محنته؟ ولماذا اقتلعت قلبها واستبدلته بحجر قاسٍ لا يتفتت، ورفعت قضية لتحصل على الشقة رغم علمها أنه ليس لديه ملجأ سواها؟ لماذا؟ هل سيكون فى الشارع؟ على قارعة الطريق؟ الله وحده يعلم.
استيقظ(أ) من خيالاته وتساؤلاته على صوت القاضى العالى الأجش وكأنه صوت القِدر ذاته وهو يقرر أن ترفع الجلسة للمداولة، مرت به لحظات عصيبة لم تطل، تمنى فيها لو يذهب إلى زوجته السابقة علها ترجع عن قرارها وتسحب القضية، هو ترجاها كثيرًا كى تعدل عن قرارها وأن تراجع موقفها، لكن الرد كان يأتى دائمًا جافًا وقحًا مذلًا، بصوت لئيم رفيع كنصل السهم ينغرس فى كبدك.

«لو كنت مكانك لدفنت نفسى حياءً وخجلًا، طردت من عملك، فشلت فى العثور على وظيفة جديدة، لا تستطيع أن تنفق علينا، ولولا عملى لشحذت أنا وأبنائى كى نأكل، وفى النهاية اصطدمت بابنك الوحيد كى تمنعه من أن يتزوج من الفتاة التى أحبها، صدقنى لم يعد لوجودك أى معنى فى حياتنا، ارحل، ارحل كفاك فشلًا».

لكن على أية حال القدر سبقه، دخل القاضى وخلفه مساعداه، جلس على مقعده الفخيم، فتح ورقة النطق بالحكم.

أغمض(أ) عينيه وتمنى لو يصاب بالصمم بل لو يتلاشى تمامًا من الوجود.

بعد الاطلاع على القانون رقم(...) لعام(...) وبعد الاطلاع على أوراق القضية رقم(...) قررت المحكمة صحة أحقية الأستاذة/(...) بتملك الشقة لحين انتهاء فترة حضانة الطفلة، والتى تنتهى فى(...)، إلخ.

وبموجب هذا القرار يلزم السيد/(...) بإخلاء الشقة تمامًا فى مدة أقصاها، إلخ.

أنقول اسودت الدنيا فى وجهه؟ هى كانت سوداء منذ ذلك اليوم الذى طرد فيه من الشركة، وهو توقع هذا الحكم على أية حال، فما الذى تغير؟ ربما هو الأمل الذى مات وانقضى أجله، ربما لأنه الآن صار فى الشارع بالمعنى الحرفى للكلمة؟ ربما. لكن هذا لم يعد يشكل أى فارق على أية حال، عليه الآن أن يخلى شقته التى اشتراها بماله حتى تنعم بها زوجته السابقة.

«تبًا ما الذى يحدث لى؟ رئيس الشركة، ألا لعنة الله عليه، لعنة الله

عليه!"

خرج(أ) بنفس منكسرة وهم يزن أطنانًا على صدره، حتى لم تعد قدماه تحتملانه وهمومه فصار يجرهما عل الطريق جرًا، وصل إلى بيته -سابقًا- فى زمن طويل نسبيًا، وليته ما وصل.

كان أسوأ شىء بالنسبة له قد وقع وصراحة لم يتوقع المزيد، هل هناك المزيد أصلًا؟ ربما لذلك لم يستوعب منظر الكتب والأوراق والملابس والحقائب التى تراكمت فوق بعضها البعض أمام منزله فى مشهد أشبه بالروبابيكيا، أو أشبه بمذبحة بشرية قام مرتكبها بإلقاء الجثث فوق بعضها البعض حتى كونت جبلًا من اللحم البشرى.

ببطء اقترب، بحذر تعرف على أحد قمصانه، بدهشة تعرف على أحد كتبه، إحساس بالعجز والشلل يحتله بالكامل.

لم يصدق ما رأى، وكأن الدنيا بما فيها ومن فيها قد قررت أن تقف ضده، وكأنها أصرت أن تكسر روحه ونفسه عن آخرها، لماذا لم تصبر زوجته حتى يدبر أموره؟ لماذا بمجرد أن نطق القاضى بالحكم أرسلت أخاها وقام بإلقاء كل ما تبقى له فى هذه الدنيا فى الشارع حتى صار كالأطلال؟ لماذا هذه الرغبة العارمة فى الانتقام منه؟ هو لم يؤذ أحدًا، وإن فعل فالله يعلم نيته.

هنا لم يتمالك(أ) نفسه، سقط أرضًا على ركبتيه، وضع رأسه بين كفيه وأخذ يبكى بمرارة، بضعف، بهوان، بذل.

كان الناس يمرون بجانب(أ) ينظرون له فى تعجب وريبة ويمضون لحال

سبيلهم، لم يتوقف أحد يسأله عما به، لم يعرض أحد عليه مساعدة من أى نوع حتى ولو كانت معنوية، بل لربما لاموه لأنه عكر عليهم مزاجهم وأفسد عليهم يومهم ببكائه ونحيبه.

لملم(أ) ما استطاع أن يجمعه، وضعه فى حقيبة صغيرة ومضى هائمًا على وجهه لا يلوى على شىء ماضيًا فى طريق معروفة بدايته مجهولة نهايته.

ظل(أ) يدور ويجول فى شوارع المدينة لا يدرى أين يذهب ولا يعلم ماذا يفعل، جال فى باله أن يتصل بقريب له علّه يؤويه أو بصديق له عساه مما هو فيه ينجيه، لكنه لم ير رغبة فى تقديم العون وإن وجد لم يجد حماسًا بل وجد ضيقًا وفتورًا وأحيانًا نفورًا، هو توقع هذا على أية حال.

دس(أ) يده فى جيب بنطاله متفقدًا ما يملك من نقود فوجد ما يكفى مكوثه أربعة أو خمسة أيام فى أقذر نزل فى المدينة، بحث وبحث حتى وجد ضالته فى نزل من الواضح أنه كان عبارة عن مبنى قديم أحالوه نزلًا.

بنفس منكسرة ومشمئزة من مظهر النزل من الخارج قرأ اسم النزل على لافتة صدئة متهالكة:"نزل البدر، هنا تجد الانسجام"، ولا يدرى لماذا بدا له أن البدر كتبت غدر وأن الانسجام كتبت الانتقام.

خطا(أ) داخل النزل فكان المكان أقذر مما بدا له من الخارج، كل شىء قديم ومتهالك، ورائحة نتنة تفوح من المكان، فكر أن يتراجع لكنه تخيل منظره على قارعة الطريق فواصل ما بدأه.

اتجه إلى موظف الاستقبال ففوجئ بمنظره، عجوز يبدو فى التسعين من عمره سقط شعر رأسه حتى آخر شعرة، ورغم ذلك كان كث الحاجب

أسوده، عيناه تكادان تكونان سوداوين عن آخرهما، فمه بلا أسنان تقريبًا، وعليه ابتسامة ثقة مملوئة بمكر لا تخطئه عين، تبًا أين رأى تلك الابتسامة من قبل؟

كاد يبدأ بالكلام لكن العجوز بادره قائلًا:

-"تبدو ضائعًا".

انعقد لسان(أ) ولم يملك إلا أن يسأله:

-"عفوًا؟!"

-"مظهرك يشى يا عزيزى، تريد غرفة أليس كذلك؟"

-"نعم غرفة بفراش واحد، جاهزة؟"

بصوت لئيم وضحكة لم يعلم ما الداعى لها تمتم الرجل:

-"لا تقلق، جاهزة منذ أشهر".

-"منذ أشهر؟!"

لاحظ(أ) أن النزل خالٍ إلا من هذا الكهل وبعض الأثاث الأثرى الذى ربما يتعدى عمر العجوز ذاته.

فى الطريق الملتوى سار(أ) ببطء وراء الكهل، صعد الدرج الخشبى الذى تآكل معظمه أو كاد، صوت أزيز الخشب يتعالى تحت قدميه، دور فالثانى فالثالث، أدوار فارغة حتى من الفراغ ذاته، حوائط خشبية نمت إلى منخرية رائحة رطوبتها، وأخيرًا وصلا، إذًا حجرته فى الدور الخامس، فكر أن يسأله إن كان بالإمكان أن يأخذ غرفة فى دور سفلى فهو ليس على استعداد لأن يصعد ويهبط خمسة أدوار كل يوم، لكنه عدل عن الأمر.

فى ردهة طويلة سار خلف الرجل متعجبًا من سرعة خطوته وسلاسة صعوده الدرج بلا توقف أو حتى كلل، أمام غرفة من باب حديدى أسود اللون بدا مميزًا عن باقى أبواب الغرف الأخرى توقفا، دس الرجل يده فى جيبه، أخرج مفتاح معدنى أسود بلون الباب، وضع المفتاح أداره مرتين ثم دفع الباب برفق.

دخل الرجل ومن ورائه(أ)، جال ببصره متفقدًا الحجرة، كانت مرتبة بعناية لكنها كئيبة المنظر، جدرانها بهتتت حتى زال لونها وإحساس عام بانقباض فى نفسه، لكن على أية حال الاعتراض فى مثل حالته كان نوع من الرفاهية، وكأن الكهل قد قرأ ما فى ذهنه.

-"أعلم إنها كئيبة، لكنها ستفى بالغرض".

تعجب(أ) من نهاية الجملة، تفى بالغرض؟! أى غرض؟! على أية حال شكر(أ) الرجل وهو ينصرف وظل وحده فى الغرفة، استبدل ملابسه، ألقى بنفسه فوق الفراش المتهالك، وراح يغط فى نومٍ عميق.

*****

استيقظ(أ) بعد نوم طال لساعات، فتح عينيه بصعوبة واستغرق بضعة ثوان حتى يسترجع كل ما كان، خرج إلى الشرفة، سرت قشعريرة فى جسده لما لفح الهواء البارد وجهه، فى الليل البهيم أطال(أ) النظر فى اللاشىء، استعاد كل ما جرى منذ ذلك اليوم، كان يبحث عن الخطأ، الخطأ الذى ارتكبه حتى يعاقب بكل ما جرى ويجرى له، منذ أن بدأت المصائب تنهال على رأسه وهو يبحث عن الخطأ، كان يبحث لعله يعذر زوجته، أو

يعذر رئيس الشركة، أو حتى ابنه الذى تركه وحيدًا، أو أصدقاءه الذين تنكروا له، لكنه لم يفلح.
فجأة طرأت فى ذهنه فكرة استحسنها كثيرًا، سوف يكتب كل ما جرى فى ذلك اليوم وما تلاه، سوف يكتب، أولًا عله يعثر فى ثنايا الأحداث عن الجرم الذى ارتكبه، ثانيًا سيكتب ليوثق ما جرى، حتى إن انتحر -وهذا جال فى ذهنه مرات عدة- يترك وراءه تفسيرًا لما فعل وتعليلًا لتصرفه.
فتح(أ) إحدى حقائبه، أخرج منها كتابًا كان قد دس فيه مجموعة من الأوراق البيضاء الفارغة، أمسك بالقلم، اعتدل فى جلسته وبدأ يستعيد فى ذهنه كيف بدأ كل شىء، بدأ(أ) يكتب، بدأ يوثق كل ما جرى فى ذلك اليوم المشئوم.
"تأكدت من درجة الحرارة والرطوبة بالمخزن وتوثقت من وضع الأمصال بالداخل، أغلقت الباب السميك ورائى وأرسلت تقريرى الدورى بأن كل شىء على ما يرام، حتى الآن.
حسب الخطة التى أطلعنا عليها رئيس الشركة الشاحنات ستصل فى تمام العاشرة مساءً ثم تنقل إلى الميناء لوضعها فى حاويات مجهزة ومكيفة لنقل الأمصال، الموضوع ليس بجديد ولا خطير، فهذه ليست أول مرة نقوم بتصنيع لقاحات وأمصال ثم نصدرها لمن يطلب، لكن المقلق هذه المرة أن الشحنة ضخمة، ضخمة بحق حتى أننا أرسلنا أكثر من مرة لنتأكد أن الرقم لا يحتوى على صفر زائد أو شىء من هذا القبيل.

كانت الأعصاب مشدودة فى هذا اليوم، خطأ بسيط فى درجات الحرارة أو الرطوبة يعنى ضياع ملايين الدولارات بل ربما تصل إلى المليار، لكن الحماسة كانت تملأ صدور الجميع، فالمدير وعد بحوافز مغرية حال إتمام العملية بدون مشاكل.

كانت الساعة الرابعة عصرًا ما زال أمامى ست ساعات، تعنى لى اثنى عشر تقريرًا، كنت حينها فى مكتبى أحتسى القهوة وأطالع الجريدة اليومية، فى تلك اللحظة أظلم المكان من حولى وهدأ كل شىء فجأة، لثوانٍ ظللت ثابتًا فى مكانى لا أتحرك، تركت القهوة وألقيت بالجريدة ثم أخذت أهرول على الدرج فى اتجاه المخازن، كان المكان شبه معتم، المشكلة أن السحب كانت تملأ السماء كعادتها وإضاءة الشمس شبه غائبة، انقطع التيار والمفترض أن تعمل المولدات، الشحنة هكذا تتعرض لخطر داهم لو استمر الوضع هكذا، أخذت أصيح بصوتٍ عالٍ واتصلت بلجنة المهندسين فأكدوا لى أن المشكلة ليست من هنا بل إن التيار قد انقطع عن المدينة كلها ولا يدرون ما السبب، سألتهم على المولدات فأكدوا أنهم يعملون على تشغيلها، اتصلت بكبير المهندسين أخبره أن المولدات لو لم تعمل خلال أربع ساعات سينتهى أمر الشحنة ولن تساوى عود ثقاب حينها، لا أدرى ما هذا التهريج؟! نحن أكبر شركة فى المدينة نقوم بتصنيع الأمصال واللقاحات والمولدات لا تعمل، تبًا!

أرسلت تقريرى الدورى وأخبرتهم بخطورة الأمر، هذه الشحنة تساوى ملايين وضياعها ربما يعنى إفلاس الشركة، مرت الساعات ببطء وبسرعة

فى ذات الوقت، اتصلنا بالمحافظة لنعرف سبب العطل فاكتشفنا أن المشكلة ليست بسيطة، المولدات لا زالت لا تعمل، أرسلنا نطلب حاويات مجهزة لننقل فيها الشحنة وأكدوا أنها ستصل خلال ساعتين على الأكثر، الساعة الآن السادسة، ساعتان وينقضى كل شىء، فى تلك اللحظة أتى المدير ومعه نائبه وكبير المهندسين وعقدنا اجتماع طارئ فى مكتبى، سألنى المدير فى رعب كم ستصمد الشحنة؟ أجبته حتى الثامنة بحد أقصى، وكبير المهندسين أكد أن العطب بالمولدات ليس سهلًا خاصة أن الظلام صار دامسًا والمهندسون يعملون على أضواء الكشافات، اتصلنا نتعجل الشاحنات وجلسنا ننتظر فى الظلام وأعصابنا تكاد تحترق، من خلف نظارتى أخذت أنظر إلى المدير بدون أن يرانى بالكاد أرى ملامحه، شعره مبعثر وملابسه غير منسقة وحالته مزرية، قلما نراه هكذا، دائمًا مصفف الشعر، منسق الملابس، نظرة تعالٍ فى عينيه التى لا تراها إلا من خلف نظارته السوداء اللامعة، دائمًا متغطرس، دائمًا مغرور، دائمًا فى نظرى صغير حقير، فقط لو كنت رائق البال حينها.

الساعة السابعة ولم يتغير شىء باستثناء أعصابنا التى ذابت وتآكلت، اتصلنا مرة أخرى نسأل عن الشاحنات فأخبرونا أنها فى الطريق، تنفسنا الصعداء نسبيًا لكن الأعصاب ما زالت مشدودة، نصف ساعة مرت، ما زلنا ننتظر، صار الظلام دامس، ما زلنا نترقب، ضرب البرق أرعدت السماء وهطل المطر، الساعة الثامنة إلا الربع، كدنا ننفجر قلقًا ثم تلقينا اتصالًا بأن الشاحنات تنتظر عند البوابات الخارجية وجاهزة للتحميل،

لكنها لن تستطيع الدخول لأن البوابات تعمل بالكهرباء، تحمس المدير فجأة وأمر العمال أن يفتحوا المخازن وينقلوا الشحنات إلى السيارات، تحول المكان إلى خلية نحل، وقاموا بفتح المخازن وبدأوا بنقل الأمصال، فى الحقيقة ساورنى القلق، المسافة من هنا حتى البوابات تحتاج عشر دقائق على الأقل لو كنت تمشى بلا أية أحمال معك، فما بالك لو كنت تحمل قدرًا لا بأس به من الكيلوجرامات، هناك سيارات صغيرة استخدموها لكنها لن تكفى؛ فالشحنة ضخمة والليل داجٍ والرؤية شبه مستحيلة، أخذت أراقب الوضع دون تدخل، خطوت إلى الخارج أراقب الوضع، لفح الهواء البارد وجهى وبدأ رأسى يبتل ونظارتى، ظللت واقفًا تارة عينى على الشاحنات والعمال، وتارة على عقارب الساعة، كان العمال يعملون بكامل طاقتهم، لكن أخشى أنها لن تكفى، ظل العمل على قدم وساق حتى تمام التاسعة إلا الثلث، وهنا تنفس الجميع الصعداء فعلا إلا أنا، عدت إلى الداخل وطلبت من المدير أن أحدثه على انفراد، بعدها بدقائق كنا داخل مكتبه، كان الظلام لا زال هو سيد الموقف، أخبرته بمخاوفى كلها؛ تجهم-أو هكذا بدا لى من نبرة صوته.

-"إذًا ماذا تريد الآن؟ الشحنة فى طريقها إلى الميناء، انتهى الأمر".

-"أريد أخذ عينات من الأمصال وأتأكد أنها لم تفسد قبل أن يستخدمها من سيشتريها".

-"هل تمزح؟ أنت قلت إنها ستحتمل حتى الثامنة، والسيارات وصلت فى الثامنة إلا الربع، واسغرق الأمر ربع ساعة لنقلها ما المشكلة؟"

-"استغرق الأمر ساعة إلا الربع".
-"لن أوقف صفقة بملايين من أجل نصف ساعة!"
-"هذه ليست نصف ساعة، هذه ربما تعنى نصف مليون طفل سيستخدمون نصف مليون مصل".
-"الأمصال سليمة، من قال إنها فسدت؟!"
-"أريد أن أتأكد".
-"هناك شرط جزائى إذا تأخرنا، لا يوجد لدى وقت لهذا الهراء، ثم إنها لن تمر من الميناء إلا بعد الكشف عليها".
-"مخاوفى محصورة فى العينات التى نقلت فى آخر نصف ساعة، أنا لا أضمن أنه سيتم الكشف عليها، فأنت تعلم أن الكشف يتم عشوائيًا".
-"هذه مشكلتهم وليست مشكلتى".
-"لو كانت الأمصال فاسدة ربما تسبب السرطان، هل تمزح؟"
احمرت عيناه فى الظلام الدامس وجف صوته كالقبر:
-"أنت الذى تمزح، لو توقفت الصفقة لأفلست الشركة، ستُغلق للأبد ولن ينفعنا أحد حينها، أكثر من ثمانية آلاف عامل ومهندس وطبيب سيشردوا، من أجل نصف ساعة؟ نصف ساعة يا أبله؟!"
-" لن أوقع على جاهزية الشحنة للشحن قبل أن أتأكد من صحتها".
أدار لى ظهره ونظر إلى الأفق من خلال واجهة مكتبه الزجاجية التى تطلعك على نظرة واسعة للمدينة:
-"توقيعك ليس مشكلة، المشكلة فى لسانك، أنصحك أن تلتزم الصمت،

وإلا صدقنى سوف تندم، سوف تندم كثيرًا".

خرجت من مكتبه لا أعرف كيف أتصرف، على أية حال لم أستمع لنصحه وفضحت الأمر بأسره، كتبت تقريرًا مفصلًا عما جرى فى هذا اليوم، ونشرته فى جميع الصحف والقنوات الفضائية الرسمية وغير الرسمية، ظننت أن الشحنة سيتم إيقافها وسيتم فتح تحقيق فيما جرى، لكن شيئًا لم يحدث، كل شىء استمر كما كان، وتمت الصفقة ووزعت الأرباح على الجميع وخرج الكل سعيد إلا أنا، ظللت جالسًا فى منزلى لأيام لا أعرف أأذهب إلى الشركة أم إننى مرفود؟ وجائنى الجواب بعد ذلك اليوم المشؤوم بثلاثة أيام، كانت زوجتى فى عملها وابنى فى الجامعة، وكنت أجلس مع رضيعتى أداعبها عندما سمعت طرقًا عنيفًا على الباب، فتحت ففوجئت بالمدير أمامى، وجهه أحمر يكاد ينفجر، أمسك بتلابيبى، رفعنى ولا أدرى كيف ثم ألقى بى على الأرض، وبصوت لم يسبق لى أن سمعته فى حياتى صرخ فى:

-"هل تظن إنك انتصرت؟ هل تظن إنك الرابح؟ تبًا لك ولطول لسانك، أنت مطرود ومطارد إلى الأبد، ولتبصق على وجهى إن استطعت أن تجد عملًا فى شركة أخرى، إذا أردت أن تربى ابنتك فالأفضل لك ألا ترينى وجهك مرة أخرى".

ثم خرج وتركنى حائرًا تائهًا خائفًا أرتعد فى هدوء وأصرخ فى صمت".

*****

هنا انفعل(أ) بشدة ارتجفت يداه وسقط القلم من يده، لم يعد يحتمل، شعر

بضيق واختناق لا طاقة له بهما، فقرر أن يخرج قليلًا للتريض.
ارتدى ملابسه وفى ثوانٍ كان فى الشارع الذى خلا تقريبًا إلا منه، كانت البرودة شديدة والساعة متأخرة، ظل هائمًا على وجهه لا وجهة له، وفى أثناء سيره سمع صوت بكاء أشبه بصراخ مكتوم، استرق السمع، أبطْأ الخطى حتى توقف، أخذ(أ) ينظر حوله محاولًا أن يحدد مصدر الصوت، زقاق ضيق مظلم على يسار مبنى قديم متهالك، خطا(أ) حتى مشارف الزقاق لا يدرى أيدلف أم يتراجع، هم بالرحيل لكن صوت البكاء تحول إلى نحيب مكتوم، استجمع(أ) شجاعته، أخرج علبة الثقاب من جيب بنطاله، وبخطوات حثيثة حذرة دخل الزقاق، أشعل عود الثقاب أضاء بشدة لوهلة ثم خفتت الإضاءة، سار(أ) بتؤدة متحسسًا طريقه، توتِره الظلال والخيالات التى يحدثها اللهب، أخذ يقترب والصوت فى أذنيه يعلو، وكان أول ما رأى جسد لشخص جالس على الأرض ضامًا قدميه إلى صدره، عاقدًا ذراعيه حولهما مطأطئ الرأس باكيًا، اقترب(أ) بحذر جلس على ركبتيه فانطفأ عود الثقاب، بلهفة تكاد تحتال رعبًا أشعل عودًا آخر، كانت فتاة هذا ما تبينه من شعرها الذى انساب على ظهرها، كانت ما زالت تبكى بحرقة، ولا يدرى إن كانت قد شعرت بوجوده أم لا، لم يدر كيف يبدأ بالكلام، لكن لم يكن بد من البدء.
-"هل أنت بخير؟"
ارتجفت رعبًا ما أن رأته، ثم هدأت قليلًا، رفعت رأسها ببطء ناظرة إليه، كانت فتاة لا تتعدى الثمانية عشر ربيعًا، لم تكن ملامحها توحى أنها فتاة

ليل أو فتاة سوء، بل بدت له من نبل ملامحها أنها من عائلة راقية أو على الأقل عائلة ليست من النوع الذى يتخذ الأزقة سكنًا له ومقامًا، لكن ملابسها وهيئتها كانت توحى بأنها فى حالة سيئة.

ظلت تنظر له لثوانٍ فى ريبة وأخذت تبكى بحرقة أذهلته فلم يدر كيف يتصرف، على أية حال ظلت تبكى لدقائق، بعدها استفاقت مما هى فيه وهدأت تمامًا، وكأنها كانت فى حاجة ماسة لتفريغ حزنها أمام شخص ما، توقفت عن النحيب بعض الشىء وظلت صامتة.

فتساءل(أ) متعجبًا:

-"هل... هل أنت تائهة؟"

-"..."

-"أين والديك؟"

-"..."

-"لا أحد لك؟"

-"لا، لا أحد".

-"لا يوجد لديك مكان؟"

-"..."

جال فى باله أن حالها أشبه كثيرًا بحاله وإن اختلفت الأسباب بطبيعة الحال.

-"هل أنت جائعة؟"

-"أشعر ببرد شديد، وبجوع أشد".

خلع(أ) معطفه ووضعه على كتفها برفق؛ فشكرته ممتنة.
-"سوف أذهب لأبتاع لك بعض الطعام، وأحاول العثور على مكان لتبيتى فيه ليلتك، فلتبقى هنا، حسنًا؟"
خرج(أ) من الزقاق متعجبًا من حال الدنيا وقسوة البشر، مد يده فى جيب بنطاله متفقدًا ما يملك من مال، ابتاع(أ) بعض الطعام ما يسد به رمق الفتاة، ثم عرج على الفندق، دخل وقص للشيخ ما رأى طالبًا منه أن يوفر للفتاة غرفة ليومين فقط حتى تدبر أمرها، امتعض الكهل قليلًا لكن بعد إصرار(أ) وافق الرجل.
عاد(أ) إلى الفتاة فوجدها قد نعست، دنا منها وهزها برفق كى تفيق، فلما أفاقت أخبرها إنها ستبيت اليوم فى النزل فى غرفة تجاور غرفته؛ فانفرجت أساريرها وانبسطت، وشكرته شكرًا كثيرًا مشوبًا بشىء بل بكثير من الخجل.
خرجا من الزقاق والسعادة تغمرها والقلق يرهقه، فقد صار الهم همان وبات عليه أن يدبر أمرها قبل أمره ويرتب شؤونها قبل شأنه، وكأن هذا ما كان ينقصه وكأن مصائبه لا تكفيه.
وصلا إلى النزل فوجدا الكهل فى استقبالهما، حياها بإيماءة من رأسه وإن خلت معالم وجهه من أى علامات ترحيب أو أمارات تحية، استلم(أ) مفتاح غرفته الأسود ومعه مفتاح لغرفة الفتاة، وصعد الدرج وهى تتبعه، وصلا إلى الطابق الخامس بشق الأنفس، ثم سارا حتى وصلا إلى حجرتها والتى كانت تقابل حجرته.

-"حسنًا يا آنسة، هذه غرفتك وهنا ستبيتين ليلتك".
-"لا أدرى كيف لى أن أشكرك، لقد زاد ودك وكرمك، وأخشى إنى لن أتمكن من رد هذا المعروف".
-"لو قدم المرء المعروف وانتظر الرد فهذا ليس بمعروف".
-"..."
-"هذا ما استطعت أن أبتاعه من طعام، ليس فاخرًا لكن عله يسد جوعك".
-"أشكرك".
-"عمت مساءً".
عاد(أ) إلى حجرته شاعرًا بشىء من الحبور لا يدرى سببه بالضبط، أم إنه فقط مجرد شعور بالألفة؟ شعور بأن هناك من يشاركك أزمتك ويشاطرك معاناتك، أو هو شعور بأن هناك فى العالم من ظُلموا مثلك، وأن هناك من شردوا وهاموا فى الطرقات قهرًا وجورًا كما سيحدث لك لو استمر الوضع على ما هو عليه، وشعور أيضًا بالقلق فهذه مسؤولية جديدة قد ألقيت من السماء على عاتقه.
ربما لذلك قرر(أ) أن يخرج غدًا فى رحلة للبحث عن عمل، أى عمل مهما كانت طبيعته وأيًا كان راتبه، هذا الوضع يجب ألا يستمر، استبدل(أ) ملابسه، أغلق المصباح الوحيد فى الغرفة وراح فى ثباتٍ عميق.

*****

استيقظ(أ) نحو التاسعة صباحًا، اغتسل بماء بارد عله يفيق، ارتدى

ملابسه وخرج لبدء رحلة جديدة بحثًا عن وظيفة تستره أو عمل يأويه، لساعات طويلة ظل(أ) يطوف ويجول بلا جدوى، مر على عدد كبير من الشركات والمصانع بلا فائدة، دلف الكثير من المتاجر والمحال بلا نتيجة، وبدا واضحًا أن سلسلة نحسه لم تنفك ولم تنكسر، بل هى تتواصل فى قوة وعناد رهيبين، فى البداية كان(أ) متفائلًا ومصرًا، ومع الوقت بدأ التفاؤل يتبخر، ومع الكلل بدأ الإصرار يتآكل ويذوب.

توالت الساعات وتعاقبت ولا فائدة، لا عمل، لا وظيفة، لا أمل، كانت الساعة قد دنت من الخامسة مساءً، والإرهاق بدأ يسيطر على جسده الذى أُنهك، وذهنه الذى تشوش، فلم يعد قادرًا على التفكير أو التدبير، خاصة أنه لم يتناول شيئًا منذ البارحة، كان يحاول توفير ما بقى معه لإطعام تلك المسكينة البائسة، قرر(أ) أن يكتفى بهذا على الأقل فى ذلك اليوم، لكن خطر فى باله اسم شركة كانوا يتعاملون معها أيام كان فى وظيفته وتعجب أنه لم يتذكرها سوى الآن، تحمس للفكرة خاصة أن هذه الشركة تعمل صباحًا ومساءً، كان موقع الشركة بعيدًا، ومن المستحيل أن ينفق ما معه على وسيلة مواصلات؛ فقرر مواصلة السير على الأقدام مشجعًا نفسه بآمال انفراج تلك الأزمة التى يحياها ولم يتخيل يومًا إنه سيفعل.

على أية حال فى تمام السادسة كان(أ) أمام الشركة، بادِ الإرهاق بشدة على وجهه، وشعور بالدوار الشديد فى رأسه، أما قدماه فلم يعد يشعر بهما بعدما تورمتا، وكل ما يحمله على الاحتمال كان فقط الأمل، الأمل ولا شىء سواه.

دلف(أ) من مدخل الشركة، اتجه إلى الموظف المعنى قدم له سيرته الذاتية، تفحصها الرجل وأثنى عليها وعليه، لكن للأسف لا يوجد أى مكان شاغر للتوظيف، قدم له الموظف الكثير من عبارات الأسف والاعتذار وأكد له أن الأمر ليس بيديه، لكن(أ) لم يكن يستمع إلى تلك الاعتذارات على أية حال، كان سارحًا فى عالم آخر، ربما كان يتخيل نفسه يشحذ على قارعة الطريق ممددًا، وربما يتجه للجريمة والسرقة من أجل أن يأكل، هل سيذهب إلى السجن، فى الزنزانة المغلقة ستكون نهايته وتنتهى روايته؟ كم دنا هذا الخيال وأوشك أن يصير حقيقة.

لم يحتمل(أ) ما رآه فى خيالاته فانهار وبكى، واستجار واشتكى، وأغشى عليه من فرط الألم والحسرة واليأس، هنا تجمع الموظفون والعاملون على صوت نحيبه وبكائه، رق قلب بعضهم وأثار استياء معظمهم، وممن رق قلبهم سكرتير شاب لا يبدو أن له شأنًا كبيرًا فى الشركة، هرع ناحية(أ) أحضر بعض الماء وقطرات من عطر وأخذ يحاول إفاقته بكل السبل، ولما أفاق جلب له شىء من الطعام والعصير عله يستعيد وعيه، فأفاق واستفاق، ولملم أوراقه واستبق الباب غاضبًا من الحياة وعليها، ساخطًا من البشر وعليهم، خرج يكفكف دموعه خجلان من بكائه أمام أناس لم يكن يجب أن يبدو ضعيفًا أمامهم، خرج وراءه الشاب مسرعًا يحاول أن يهدئ من روعه ويبدى له استعداده لتقديم عون إن كان فى حاجة، لكن(أ) شكره وأبى، فألح الشاب فلما قص عليه(أ) قصته فى عجالة، أخرج الشاب مبلغًا بسيطًا من المال وأصر أن يأخذه(أ)، كاد

يرفض مجددًا لكنه كان يعلم قدر حاجته لهذا المال، فإن لم يكن من أجله فمن أجل الفتاة الضائعة التى صار مسؤولًا عنها وكأنها ابنته، أخذ (أ) المال مقدمًا عبارات الشكر الممزوج بالألم والخجل من الموقف فالفتى من سن ابنه.

مضى(أ) عائدًا إلى النزل وقد توقف عقله تمامًا عن التفكير، ولسبب ما لم يكن يشعر بالمفاجأة لفشله فى العثور على وظيفة، كان يشعر أن هذا ما ستؤول إليه محاولاته بأى حال من الأحوال، كان شغله الشاغل فى تلك اللحظات أن يحصل على حمام دافئ ويذهب فى ثبات عميق، وليذهب كل شىء إلى الجحيم الآن.

سار(أ) وسار حتى تورمت قدماه، كان قد دنا من النزل، بتؤدة يعبر أحد الطرقات التى قلما تمر منها سيارات مسرعة ناهيك عن مرور سيارات من هذا الطريق أصلًا، لم يدرك(أ) ما جرى، هو لم يلحظ شيئًا فما بالك برؤية أى شىء، مركبة مسرعة أطارته فى الهواء مترًا على الأقل ومضت لحال سبيلها، كانت الدهشة آخر ما شعر به، لم يكن هناك وقت ليخاف أو يرتبك أو يتحاشى، فقط هو فوجئ بهذا الذى يزيله من على سطح الأرض بقوة ألهبت الألم فى ضلوعه، يذكر أيضًا إنه بعد الصدمة بثوانٍ تنامى إلى مسامعه صراخ فتى، يبدو إنه كان فى السيارة التى صدمته، كان الفتى يصرخ فى سائقها أن يتوقف، السيارة ماضية وصراخ الفتى يتعالى ولكن الصوت يبعد ويختفى، ظل(أ) ملقى على الأرض بلا حراك وأنى له أن يتحرك، دقيقة مرت فإذا بالسيارة تعود ومن قبلها صوت الفتى ما زال

يصرخ ويزعق.

توقفت السيارة أمامه، نزل الفتى مسرعًا وخرج السائق-الذى اتضح إنه كان والد الفتى- خرج يتلكأ متجهًا ناحية(أ)، انحنى وقام برفعه عن الأرض، ثم أدخله السيارة، جلس الفتى بجانب(أ) فى الخلف وانطلق الرجل إلى أقرب مشفى.

استلقى(أ) فى المقعد الخلفى واضعًا رأسه على فخذى الفتى الذى أخذ يمرر يده برفق على رأس(أ) مثبتًا إياه ومصبره على آلامه، كان(أ) رغم آلامه المبرحة، ما زال فى وعيه وإلى مسامعه تنامى حديث الفتى مع والده.

-"اسمع يا بنى، سنوصل الرجل إلى أقرب مشفى ونتركه هناك، أنا فى غنى عن مسؤولية جنائية وقضايا وهراء من هذا القبيل".

-"ماذا تقصد بأننا سنتركه هناك؟ ألن ندخل معه؟"

-"هل تمزح؟ لو دخلت معه فإن المكان التالى الذى سأدخله سيكون السجن، وستشرد أنت وإخوتك إلى يوم يبعثون، ثم إن الأمر ليس ذنبى ولا خطأى".

-"ليس ذنبك؟ أنت كنت تسير كالصاروخ!"

-"لا تجادلنى كثيرًا، سأقف على بعد ثلاثة أمتار من مدخل المشفى، تسحب الرجل إلى أقرب مكان من المدخل وتمضى بسرعة دون أن يراك أحد، هل تسمعنى، لا أحد يراك".

تمتم الفتى بصوت منخفض:

-"يا لك من حيوان".

-"ماذا قلت؟"

-"لا شيء".

-"حسنًا لقد اقتربنا، استعد".

أوقف الرجل سيارته فى مكان خال من الناس، خرج من سيارته وقام بإخراج(أ) من السيارة ثم أمر ابنه بأن يجره على الأرض مقتربًا من مدخل المشفى، كانت المهمة شبه مستحيلة لأن الفتى كان ضعيف البنية هين، لكنه حاول باستماتة وبعد معاناة ومجهود مضنى دنا كثيرًا من المدخل أسنده الفتى إلى جدار المشفى وجلس على ركبتيه محاولًا إفاقته بعد أن دنا كثيرًا من حالة الإغماء، أخذ الفتى يعتذر لـ(أ) كثيرًا مؤكدًا إنه نادم على ما فعل، ونادم لأنه سيتركه فى مثل هذه الحال، حتى إنه بكى من فرط تأنيبه لنفسه ولومه لها، ربت(أ) على كتف الفتى وبصعوبة قال:"لا عليك، لا عليك".

نهض الفتى وجرى إلى السيارة التى ما لبثت أن انطلقت بهما بسرعة مجنونة، مرت دقائق كالدهر، لم يعد(أ) يحتمل فأغشى عليه، بعدها بحوالى نصف ساعة خرج أحد أفراد الأمن ليدخن لفافة تبغ فى الهواء الطلق، فلاحظ هذا الجسد المكوم على يسار المدخل، ألقى الرجل باللفافة وهرع ناحية(أ)، تفقد نبضه لا يزال بالحياة ينبض، لكن ملابسه قد صارت بلون الدم حمراء، حمل الرجل(أ) واتجه إلى مدخل المشفى ليداويه الأطباء، فإذا بموظفو الاستقبال يعترضون طريقه وينهالون عليه بوابل من الأسئلة والاستفهامات، فلا أحد يدخل بدون إثبات شخصية والأهم بدون رسوم

الدخول والحجز وتوقيع شخص ما مسؤولًا عن المصاب، فصرخ فيهم رجل الأمن أن الرجل يموت ولا وقت لهذا الهراء،.فاستجابوا لصراخه وأدخلوه إحدى غرف العمليات على مضض، عالجه الأطباء وداووا جراحه وظلوا بجانبه حتى تحسنت حالته، لكن إدارة المشفى علمت بالأمر فقررت ألا يخرج(أ) من المشفى إلا بعد سداد مستحقات العلاج والإقامة، فلما تفقدوا ما معه وجدوا إنه لا يكمل نصف المبلغ، فأخذوه على أية حال، فى انتظار أن يظهر له صاحب يسدد ما بقى.

فى صباح اليوم التالى كان(أ) قد استفاق وببطء استعاد كل ما جرى، دخلت عليه الممرضة تخبره بأن يبتهج فقد أتى شخص ما يعرفه ودفع ما بقى عليه من نقود، جال فى باله أن هذه زوجته، لكن فى نفس اللحظة دخل عليه العجوز بقامته المحنية وابتسامته اللئيمة التى لم تفارقه.

-"لا أعرف كيف لى أن أشكرك، هذا معروف لن أنساه!"

-"سأخبرك كيف لك أن تشكرنى وترد معروفى لكن ليس الآن، فالآن وقت العودة إلى النزل".

-"كيف علمت بما حدث؟"

-"لا يهم الآن، هيا إلى النزل".

تعجب(أ) من الرد لكن بعد كل ما رأى صار العجيب أمرًا عاديًا والعجب شيئًا مكررًا.

عاد العجوز ومعه(أ) مستندا إليه رغم كهولته لكن لم يبد لـ(أ) أنه يصطحب عجوزًا ولا حتى كهلًا، وصلا إلى النزل صعدا الدرج ودلفا

إلى غرفته، أرقده العجوز على الفراش ببطء، وهنا دخلت الفتاة لتطمئن على(أ)، سردا لها ما جرى بسرعة، شكرها على سؤالها ثم عادت الفتاة إلى غرفتها بعد أن طلب منها العجوز ذلك معللًا بأن(أ) فى حاجة لأن ينال قسطًا من الراحة.

ظل العجوز واقفًا لثوان، نظر إلى(أ) بعينيه السوداوين بشدة وأردف بصوت فخيم رخيم:

-"أريدك أن تنام وترتاح، فى المساء سوف آتيك لأحدثك فى أمر عجاب، أمر لم تسمع به من قبل، فارتقبنى ولتفرغن ذهنك تمامًا حتى يتسع لما سأقول، فالأمر ليس هينًا، عمت مساءً".

لدقائق ظل(أ) يفكر فيما قاله الرجل، فمن الواضح أن مزيدًا من المتاعب قابعة تنتظر، لكن مع التفكير غلبه الإرهاق فنام، نام حتى المساء.

لساعات ظل قابعًا ينتظر، عيناه لم تفارق عقرب الساعات ولم تغفل عن مرور الدقائق والثوانى، لساعات ظل جالسًا فى مكانه ينتظر، وكم طال انتظاره، وطال وشق عليه صبره وصعب، لكن للانتظار نهاية وللصبر حد ومدى، على مقعده لم تتغير حالته ولا وضعه، عيناه مثبتتان معلقتان على الساعة الخشبية التى ظل ينظر لها لسنوات بل لعقود حتى حفظ كل تفصيلاتها عن ظهر قلب، لكنها اليوم تبدو عليه جديدة وكأنه لأول مرة يراها ويلحظها، هذه المرة دون كل مرة، هذه المرة دنا الفرج واقترب، ونضجت ثمرة صبره فتدلت، لو نظرت له لحسبت إنه هادئ ثابت الجنان، لكن فى داخله بحر لجى وأمواج كالطود العظيم تضرب ببواطنه وتعصف،

ذكريات السنوات العجاف تمر الآن أمام ناظريه كشريط مسجل، ومع كل ذكرى ينتفض جسده وتهوى نفسه، لكنه كان يعزى نفسه أن لحظة الانتقام قد باتت على شفا ساعات، ساعات لا أكثر ولا أقل.
فى تمام الثانية عشر مساءً دقت الساعة معلنة لحظة طال انتظارها، لثوانٍ ظل العجوز فى مكانه يستمع فى تلذذ وهيبة لدقات الساعة، فلما انتهوا قام من مجلسه وسار بتؤدة ناحية مكتبه، أخرج سلسلة مفاتيحه اختار أحدهم وانحنى واضعًا المفتاح فى درج مكتبه، فتحه واخرج منه علبة خشبية متوسطة الحجم، فتحها برفق مد يده أخذ ورقة تبدو قديمة كالدهر من لونها الأصفر الذى بهت لكنها لم تكن مهترئة بحال، دسها برفق فى جيبه، أغلق الصندوق ثم الدرج وسار فى طريقه إلى غرفة(أ)، صعد الدرج، سار فى الردهة حتى وصل إلى غرفة(أ) فتح الباب رغم عدم امتلاكه مفتاحها الذى كان بحوزة(أ) دلف الغرفة وأغلق الباب بهدوء، خطا العجوز حتى وصل إلى الفراش جلس عليه وأخذ يهز(أ) برفق، لم يفق فى البداية لكنه أفاق فى النهاية، فلما استيقظ كان عجبه من وجود العجوز أكبر من انزعاجه فأنى له أن يدخل عليه أثناء نومه، أضاء العجوز مصباحًا بجانب الفراش، فهال(أ) منظره فى مثل تلك الإضاءة الجانبية.
-"لا تقلق جئتك كما أخبرتك، هناك ما يجب أن تسمعه".
اعتدل(أ) فى جلسته وقال فى تردد:
-"خير؟ ما الأمر؟"
-"لا أدرى إن كان خيرًا أم لا، لكنى أعلم إنه لا بد منه".

-"حسنًا فقط تمهل على، أعطنى دقيقة واحدة أغسل وجهى ببعض الماء حتى أفيق".

خرج(أ) لدقيقتين ثم عاد مرتابًا فيما يحدث، جلس على مقعد بجانب الفراش وقال فى اهتمام:

-"ابدأ فى الموضوع، أنا أستمع".

-"لا أستطيع أن أحدد بالضبط كيف لى أن أبدأ؛ فالقصة طويلة، لكنى سأختصر وأعطيك ما تحتاج وكفى".

-"حسنًا".

تنهد الكهل واسترسل فى الكلام حاكيًا:

"سوف أختصر قدر ما أستطيع، كنت أعمل سائقًا لحافلة نقل ركاب، كانت تابعة للحكومة، فى يوم لم ولن ينسى تكدست السحب فى السماء واكفهرت منذرة بعاصفة تختمر وتتأهب، كنت قد أخذت الركاب من إحدى المحطات الرئيسية فى وسط المدينة، كانت الحافلة ممتلئة عن آخرها، وفجأة قررت السماء أن مهلتها قد انتهت وأفضت بكل ما حملت، ودق شديد هلعت لشدته بعض القلوب، المساحات الأمامية تجاهد لكن بلا أدنى فائدة، كدت أتوقف حتى تهدأ الأمطار فلم أكن أرى شيئًا تقريبًا، وفجأة لمحت شيئًا ما يمر أو للدقة يحاول المرور بسرعة من أمام الحافلة، حاولت أن أتفاداه، فأدرت المقود لليمين بسرعة وقوة، لكن يبدو أننى أدرتها بأقوى مما يلزم، كادت الحافلة تنقلب على يمينها، أخذت تتأرجح يمنة ويسرة، حاولت السيطرة عليها، لكن

الطريق كان مبللًا بشدة بمياه الأمطار التى لم تتوقف، فانحرفت الحافلة وصعدت رغمًا عنى على الرصيف مقتحمة كل ما تواجهه حتى ارتطمت بشدة فى زجاج ظننته لمحل، لكن اتضح إنه كان فندقًا شهيرًا بالمدينة، تحطمت واجهة الحافلة وواجهة الفندق بشكل لم يكن بسيطًا، وتوالت الصرخات وتعالت من داخل الحافلة ومن خارجها، حتى لا أطيل عليك أصيب فى هذه الحادثة رجل تصادف مروره على الرصيف وتصادف أيضًا إنه كان عضوًا فى مجلس نواب المدينة، أصيب طفل بشلل مؤقت نتيجة ارتجاج فى المخ، وتهشمت واجهة الفندق مخلفة خمسة إصابات بعضها خطير بالإضافة لخسائر مادية فادحة، بالطبع تمت ملاحقتى قانونيًا من أكثر من فرد وأكثر من جهة، وللأسف لم يساندنى أحد ولا حتى بكلمة أو بشهادة، فى النهاية وجهت لى تهمة إهمال وتسيب وأشياء من هذا الهراء، ونلت خمسة عشرة سنة خفضت إلى عشر سنوات، قضيتها ولا ينتابنى سوى إحساس بظلم فادح، حاولت ويعلم الله أن أتفادى هذا الذى ظننته يعبر أمامى، لم يكن هذا إهمال منى لكن ماذا أقول ولمن؟ على أية حال مرت العشر سنين ولما خرجت عرجت عائدًا إلى بيتى وإلى زوجتى التى لم تزرنى سوى لأول سنتين، ثم انقطعت زيارتها تمامًا لسبب تبينته عندما وصلت إلى منزلى الذى اكتشفت إنه كان منزلى، فقد قامت السيدة الفاضلة ببيع المنزل-رغم إنه ملكى- ولا أدرى كيف زورت عقد الملكية، باعته ثم رحلت إلى مكان لا يعلمه إلا الله، حاولت أن أسترد حقى لكن كان هذا نوع من الوهم وضرب من الخيال، لم أكن أملك

شيئًا على الإطلاق حينها، لا شىء فعلًا، ولا حتى بضعة جنيهات أسد بها رمقى، ولما باعنى كل من ظننت أن فيهم صديقًا أو قريبًا، افترشت الطرقات وتوسدت سماء قدرت أنها اكتفت بمشاهدتى وأنا أُظلم وأُهان، وهكذا ظللت فى شوارع المدينة وأزقتها أقتات من فتات أهلها الظالمين، ظللت على هذه الحال لشهر تقريبًا وفى أحد تلك الأيام كنت كعادتى أفتش فى إحدى صناديق القمامة على أعثر على ما اقتات به، فى زقاق ضيق رائحته كالقبر ملىء بجميع أنواع القاذورات التى تخيلتها والتى لم تتخيلها، أخذت أبحث بين هذه الأكوام فلا أعثر إلا على ما يثير اشمئزاز الكلاب فما بالك بالبشر، كل ما أعثر عليه لا يصلح لإطعام فأر فما بالك بإنسان، فى لحظة ما انكسر شىء فى داخلى، أهى نفسى؟ ضميرى؟ روحى؟ لا أدرى لكنى لم أعد أنا الذى كنته، شىء ما تبدل وتغير، تحول اليأس إلى غضب، تحول الضعف إلى سخط، تحول السخط إلى انتقام، التمعت عيناى فى الظلام، وأظلمت روحى فصارت أكثر سوادًا من الظلام حولى، لم يعد أمام ناظرى سوى كلمتى الانتقام والغضب، لم أدر تفسيرًا ولم أجد تعليلًا لهذا الذى انتابنى فجأة ودون مقدمات، كنت على هذه الحال شهرًا فلم الآن بالذات؟

فى تلك اللحظة وفى تلك اللحظة بالذات ومن اللامكان سمعت ذلك الصوت الذى لن أنساه ما حييت، لن أنساه أبدًا، صوت لا يوصف لا لصعوبة وصفه بل لأن الكلمات التى تناسب وصفه لم توجد أصلًا، لم تخلق.

-"أوغاد أليس كذلك؟"

أجفلت ودرت حول نفسى عدة مرات أبحث عن مصدر الصوت فلم أجده، أعلم إننى لم أتخيل الصوت، حالتى النفسية بالغة السوء لكنى لم أجن بعد.

-"من هناك؟"

-"لم لا تسامحهم وحسب؟"

أجفلت متوجسًا من غرابة الصوت.

-"أظهر نفسك أيها الأحمق، هل تمازحنى؟"

-"لكنك لن تسامحهم، أعرف هذا".

-"..."

-"أنت سوف تنتقم، أنا أعرف هذا أيضًا".

-"أظهر نفسك، فلم أعد أهتم".

-"يمكننى أن أساعدك".

-"لن أجيب شخصًا لا أراه".

-"هل تريد أن أساعدك؟"

استبعدت ذلك الشعور أن هذا مجرد وغد آخر، فقط شحاذ مثلى يسلى نفسه لا أكثر، ربما نبرة صوته جعلتنى أنتبه لما يقول.

-"نعم، نعم بالتأكيد، لكن أظهر نفسك أولًا ثم نتحدث؟"

-"ستراني حين يجب أن تراني".

-"حسنًا، ماذا تريد منى أيها الغامض؟"

-"لست أنا الذى أريد، أنت من تريد، تريد أن تنتقم".

-"من أنت يا هذا، أوقف هذه السخافة وقل لى من أنت؟"

-"أنا من يملك السلطان والجاه، أنا من أحرك البشر، أنا من بيده مقاليد الأمور، أنا من سيلبى لك طلبك ومبتغاك".

ارتجفت لما قال ولم أستطع أن أعتبره هراء أو هباء، ولا أدرى لماذا.

-"حسنًا على أية حال، يجب أن أراك، لم أنت مختف؟"

-"دعك من رؤيتى الآن، أما الآن استمع لى جيدًا".

-"أنا مستمع".

-"هناك صفقة سوف أعقدها معك، ألبى لك كل ما تريد وتلبى لى طلبًا واحدًا".

-"صفقة؟! ارحل عن هنا بالله عليك، لست فى مزاج رائق للمزاح".

-"صدقنى سوف تندم، ثق فى ولا تقلق".

صوته كمخدر ينساب فى الأثير.

-"عن أى صفقة تتحدث؟ وما مصلحتك؟ أنا لا أملك شيئًا لعلمك".

-"لا أطلب منك سوى أمر واحد، بعدها أنا عبدك".

لم أر بأسًا من الاستماع.

-"أكمل".

-"سوف ألبى رغبتك فى الانتقام، أحققه لك، فقط قبل أى شىء أريد أن أتأكد وأستوثق".

-"مم؟"

-"من أن الإنسان الذى بداخلك قد مات".
صمت الرجل لثوانٍ وبدا شىء من التردد فى صوته.
طلب منى أن أقتل نفسًا، أى نفس بشرية، كان يريد قبل أن يظهر ويعقد معى الصفقة أن يتأكد أن الانتقام صار هدفى وغايتى، صار خلاصة وجودى وبوتقة حياتى، أراد أن يتأكد من أن ما كنت فيه لم يكن لحظة غضب ستمضى لحال سبيلها، وأن السخط بداخلى كاف ليدك الجبال دكًا، وأن يهد الأرض بما عليها ومن عليها هدًا.
على أية حال قبلت الشرط، كنت فى حالة غريبة لا أستطيع وصفها، شىء من إرادة مسلوبة وخدر يسرى فى مؤخرة رأسى، لم أكن قد قتلت من قبل، لكنى أيضًا لم أكن قد اختبرت ما بقى من إنسانيتى بداخلى، واكتشفت حينها إنه لم يبق منها شيئًا على الإطلاق، وبدا لى الأمر حينها ليس بالخطورة التى كنت أتصورها، انتظرت أول بائس يمر من أمام الزقاق، كان رجلًا فى العقد الرابع من العمر، فى البداية ترددت لكنى تذكرت أننى أنا الضحية وليس هو، كل بشرى يعيش منعمًا ولا يلقى بالًا لأمثالى هو جانى وليس ضحية، هو يستحق العقاب وسينال الجزاء، سيناله حالًا.
بجزء من ماسورة معدنية صدئة انهلت على رأسه بضربة هشمتها وأنهت حياته فى دقائق، نظرت له فى ازدراء وتشفى، عدت إلى داخل الزقاق ولم ألق بالًا للجثة.
-"حسنًا هل تأكدت الآن؟"
-"..."

-"أين ذهبت؟"
مسخ بشرى، وكأنه مصاب بجذام أو اهتراء فى بشرة وجهه وجسده كله، شاحب الوجه بشدة، نصف ابتسامة سخيفة على وجهه، عيناه ضيقتان بشدة مملوئتان بشر مستطير مظلم، حاجباه رسما بشكل ساهم فى وضع لمسة لؤم على وجهه المختال المتعجرف، حضور طاغ أخرسنى، لم يتكلم لكن من مظهره علمت إننى سأنفذ ما يطلبه منى، رغمًا عنى، سار نحوى بتؤدة، شعرت بخليط من رهبة وتقزز، رائحة نفاذة تحرق خيشوم أنفى.
-"الآن فقط يمكننا أن نعقد الصفقة، هل أنت مستعد؟"
-"..."
-"لا تخف أنا هنا لمساعدتك، من الآن أنت تأمر وأنا أنفذ".
-"ف... فقط أخبرنى، من تكون؟ حتى أعلم مع من أتحدث".
-"سوف تعلم حين يجب أن تعلم، يكفيك الآن أن أخبرك إننى من أحرك البشر، أنا عقلهم وخيالهم وأحلامهم، أنا أمانيهم وأطماعهم وأوهامهم، إن من يسبونى فى علنهم ويطيعونى فى سرهم ويستعينوا بى وهم وحدهم، هذا أنا فلك أن تستنتج، والآن أعرض عليك الصفقة".
-"..."
-"الاتفاق بسيط سوف تنتقم من البشر وأنا من سأقوم بكل شىء، فقط أنا فى حاجة إلى موافقتك وبكامل رغبتك، عقد بسيط لن تراه لكنى أضمن لك ما فيه، سوف توقع عليه، لكن هناك شرط واحد فقط لا غير".

-"أى شرط؟"

-"قد ذكرته ولم تنتبه لكلامى، سوف تنتقم من البشر، البشر كلهم، وليس فقط من ظلمك منهم أو غصب حقك".

بصوت مرتعد أجبته:

-"هل تمزح؟"

احتدت نبرة صوته فصارت أكثر رعبًا:

-"من أنت حتى أمازحك؟ هذا شرطى".

-"لكن، لكن عدد من ظلمنى لن يتجاوز الأربعين شخصًا على الأكثر، كيف تطلب منى أن أنتقم من خمسة أو ستة مليار إنسان بسبب عشرين شخصًا؟"

-"ألم تقل إن كلهم أوغاد؟"

-"نعم قلت ذلك، لكنه كان قولًا مجازيًا، أعنى بعض منهم، أو حتى معظمهم، لكن يستحيل أن يكونوا كلهم".

-"حسنًا، ماذا لو أثبت لك أن كلهم أوغاد يستحقون الحرق؟"

-"لا أعرف، حقًا لا أعرف!"

فى تلك اللحظات كانت حيرتى كأشد ما تكون الحيرة، نار الظلم بداخلى لم تنطفئ، وما زالت رغبة الانتقام تجتاح أوصالى، لكن ما قاله لى كان مفاجئة، وأمر جد خطير يستحق التريث، فطالبته أن يعطينى بعض الوقت، فكان رده:

-"أعلم سبب ترددك، تعتقد إنك ستجنى على البشر بقرارك، تعتقد إنك

ستغتصب حقهم وتوقع بهم ظلما بينًا، حسنًا، يمكننى أن أتفهم هذا، بعد زمن لن أحدده، سيأتيك إنسان آخر، رجل محطم مثلك، وقع عليه ظلم لم يقع على أحد من قبل ولا من بعد، إنسان ما رآه وتعرض له كفيل بأن يكسره ويحوله إلى وحش قاتل، سيأتيك ويقص عليك قصته، ويروى عليك حكايته وستعجب لما تسمع وترى، حينما تراه فى قمة غضبه وسخطه على الناس والعالم أجمع، قص عليه قصتك معى واعرض عليه الصفقة، فإذا وافق عليها كان فى هذا إبطال لحجتك وبيان لسوء لجاجتك، وإثبات بين أن كلهم، كلهم أوغاد يستحقون الموت حرقًا، وحتى يأتيك هذا الرجل سأوفر لك مكانًا تعيش فيه ومنه إلى أن تدرك هذا اليوم أو أن يدركك الموت".

لم أكد أجيبه حتى طافت بى الدنيا وهاجت فجأة كأن شيطان يقودها ويحركها، حتى أغشى علىّ، ولما أفقت وجدتنى نائمًا فى بهو الفندق بنفس الثياب التى ترانى بها الآن، لم أخلعها منذ حوالى ثلاثين عامًا انتظرتك فيها، وبطبيعة الحال ظننت أن ما رأيته كان حلمًا أو كابوسًا، سمه ما شئت، لكن الفندق والثياب وبعدهما عدد لا يحصى من الأحلام التى زارنى فيها إبليس يحثنى على الصبر حتى حين".

بقينا جالسين كما نحن فى صمت أطبق على المكان فجأة بعدما انتهى من كلامه، لم أدر ماذا علىّ أن أقول كنت أحملق فى اللا شىء ساكتًا، ولما طال الصمت أدار وجهه ناحيتى متسائلًا:

-"هل تصدقنى أم تظن إننى واهم؟"

-"لا أعتقد أن من فى مثل سنك وحالتك رائق البال ليكذب ويؤلف ما سمعت، لكن ما هو؟ هل هو بشرى؟ أو ربما ساحر؟"

-"لا ليس بشريًا ولا ساحرًا، أكبر ظنى إنه إبليس بشحمه ولحمه، إن كان له لحم!"

-"إبليس! هل تمزح معى؟!"

-"هذا ما ظننت ولا زلت منذ رأيته".

-"لا أومن بما تقول فى الواقع".

-"لكن، هل أنت معى أم لا؟"

-"لا أدرى حقًا، لكن مهلًا، أنا أساسًا لم أقص عليك ما جرى لى، فكيف علمت أننى أنا من تنتظره، ربما أنا مجرد شخص ظروفه سيئة".

-"يا عزيزى كما أخبرتك، إبليس أخبرنى بكل شىء، بل إنى رأيت كل ما جرى وسمعته أيضًا منذ اللحظة التى انقطع فيها التيار الكهربائى فى المصنع، حتى اصطدام السيارة بجسدك، مرورًا بحكم المحكمة وفصلك من العمل من أجل كلمة حق قلتها، وطردك من شقتك وإلقاء أشياءك على قارعة الطريق، أعلم يا بنى، أعلم كم الظلم الذى تعرضت له، وكم الحقوق التى اغتصبت منك، لكنى لا أعلم إن كانت نار الانتقام تشتعل فى فؤادك وتسرى فى أوصالك مثلى أم لا، لا أدرى إن كان الغضب والسخط يجتاح جسدك ويحركه أم لا، لا أدرى وأرجو لو تجيبنى".

انتفض(أ) لدى سماعه هذا الكلام من الكهل، انتفض وكأنه يسمعه لأول وهلة، وكأنه لم يلحظ من شدة ما جرى له أن كل ما قاله العجوز فعلًا

قد جرى له، كيف لم ينتبه إلا الآن؟! ومن شدة دهشته كاد يسأله:"هل أنت واثق مما قلت؟ كل هذا حدث لى؟"، لكنه تدارك وتذكر، ثم أطرق وتفكر، ثم احتالت دهشته حزنًا، فاحتال الحزن غضبًا، تفاصيل ما جرى أخذت تنزل كالصواعق تترى كل واحدة أشد من سابقتها، أمام ناظريه رأى مدير الشركة بنظارته السوداء اللامعة وشعره المصفف، تذكر احمرار عينيه وبحة صوته فى الظلام حين حذره من الثرثرة والكلام، تذكر زوجته وكلامها الذى لو وجه إلى جبل لدك من هول ما قيل، تذكر إصرارها على طرده من منزله، تذكر منظر القاضى وهو ينطق بصوته الأجش حكم إلقاءه فى الشوارع، تذكر كل صديق أو قريب تنكر له وتعذر بأعذار واهية رافضًا مساندته، تذكر كل صاحب شركة أو مصنع نظر له بازدراء غير مبرر حين سأل عن وظيفة شاغرة أو عمل مؤقت يأويه من التسول، تذكر السيارة المسرعة وسائقها المتعجرف الذى خشى على نفسه من المسائلة فألقاه وهو غارق فى دمائه على قارعة الطريق، تذكر كل هؤلاء القساة الجفاة، كل هؤلاء الحيوانات، كل هؤلاء الأوغاد.

كان جسده يهتز غضبًا وينتفض، غلى الدم فى عروقه، بذرة الغضب فى داخله كانت تُسقى غدرًا وظلمًا، تنمو ولا يشعر أن البذرة صارت زرعة صغيرة، ثم نمت فصارت شجرة، ولما تحولت الشجرة إلى دوحة عظيمة أوراقها من غضب وأفنانها من سخط وجذورها سقيت من ظلم العباد، فلم يعد من بد لتتوارى خلف هذه الدوحة طيبة قلبه وبراءة نفسه، فخرجت معلنة عن نفسها تضرب وتدمر كل ما يواجهها ويعترض طريقها، ولأول

مرة فى حياته تقريبًا يفكر فى الانتقام، نعم الانتقام، أخذ يرددها لنفسه واندهش كم تريحه هذه الكلمة وتخفف من وطأة همومه، أخذ صوته يعلو وهو يرددها، الانتقام، الانتقام، الانتقام، لا مفر لا بد لا بديل، هذا ليس اختيار هذا قدر، نعم هو قدر له أن ينتقم ممن ظلمه وحتى من لم يظلمه، كلهم أوغاد، كلهم، هكذا أخذ(أ) يقنع نفسه ويحدثها، من لم يظلمه البارحة فلسوف يظلمه غدًا، وإن لم يكن غدًا فبعد غد.

نظر(أ) إلى العجوز بحدة وقال فى عزم وحزم:

-"أين العقد؟"

-"هل أنت واثق؟"

-"لن أفكر مرتين، فليذهبوا إلى الجحيم!"

قام العجوز من مجلسه ببطء مرددًا أخر مقطع فى الجملة لنفسه: "فليذهبوا إلى الجحيم! نعم فليذهبوا إلى الجحيم"، أخرج العقد من جيبه الأيمن ومن الأيسر أخرج القلم، خطا ناحية(أ) ناوله العقد والقلم، فكر (أ) أن يقرأ العقد أولًا لكنه كان مكتوبًا برموز لم يرها من قبل، لم يعر الأمر اهتمامًا، القرار اتخذ وانتهى الأمر، أشار العجوز بإصبعه إلى مكان التوقيع، كان بجانب توقيعه هو من سنوات، أمسك(أ) القلم وبدأ يخط ويده ترتجف انفعالًا.

صمت مطبق، ذلك الاحساس بتفريغ الهواء، خواء، شعور بالصمم، تذكر العجوز على الفور نفس الإحساس يراوده الآن بعد عقود، انتابته رجفة رعب فاجأته، لم يستطع أن يفسر سبب خوفه هو يراه كل يومٍ تقريبًا فى

أحلامه، فلم القلق؟ قال والرعشة واضحة فى نبرات صوته:

-"سيأتى الآن، استعد".

لم يدر(أ) كيف له أن يستعد أصلًا فكاد يسأله لكنه كان قد حضر، لم يتغير لا قليلًا ولا كثيرًا عن آخر لقاء تم بينهما، نفس مسحة البرود والصمت على سحنته، ابتسامة سخيفة على وجهه، كل معانى اللؤم والمكر والدناءة فى عينيه، بل فى كل تفصيلة منه، لو كان غرضه أن يبدو فى صورة بشرى فيمكن القول إنه فشل فشلًا ذريعًا، فلا يوجد إنسان على وجه البسيطة يمكن أن يبدو فى مثل هذه الصورة البشعة، يمكن القول إنه أجمل مسخ فى الوجود، أو إنه الصورة الطيبة للبشاعة فى شكل بشرى، بتؤدة اتخذ مقعدًا يواجه الفراش، ظل(أ) والعجوز ينظرون له فى عجب ممزوج بهيبة وخشوع بالغين، ولا بأس من بعض القرف والتقزز، نظر لـ(أ) فشعر أنه لا ينظر إليه بل ينظر من خلاله، نظراته تخترقه اختراقًا مرعبًا، عينان رماديتان غائرتان، لا حياة فيهما لكن يحملا ألف رسالة بلا معنى واضح، كان الغضب الذى اجتاح(أ) الآن قد تبخر وانقشع، وحل محله رعب مقيم من هذا الكائن الجالس أمامه ولا ترتفع عيناه عنه، بصوت حاد واضح المخارج لكن غامض النبرات، يبدو وكأنه صوت الثعبان، إذا كان للثعبان أن يتحدث:

-"لا تخف، أنا فى صفك، حسنًا فعلت، صدقنى لن تندم".

هدأ(أ) قليلًا لكن لم يتلاش رعبه ولم يرد.

التفت إبليس إلى العجوز قائلًا:

-"ما بالك أيها العجوز، ألم تخبره إننى هنا لمساعدته؟"
-"أخبرته، أخبرته سيدى".
-"حسنًا الآن أرى أنكما قد اتفقتما على الانتقام، من جميع البشر".
رد العجوز فى تردد:
-"نعم، أعتقد هذا!"
-"حسنًا اقترب أيها العجوز، لا تخف، وأنت أيضًا تعال إلى هنا".
جلس(أ) والعجوز حول إبليس، عم الصمت لثوانٍ، قال إبليس:
-"حسنًا قررتما الانتقام ووعدتكما، بالتنفيذ أنا الآن رهن إشارتكما كيف تتمنيان أن يكون الانتقام؟"
قال العجوز فى لهفة:
-"فلتحرق بهم الأرض".
أردف إبليس موجهًا كلامه لـ(أ):
-"ما قولك؟"
أطرق(أ) مفكرًا مادًا بصره إلى لا شىء وظل صامتًا لدقيقة أو يزيد، ابتسم فى لؤم بدا على وجهه وقال ببطء:
-"حسنًا، إذا كنت حقًا ستفعل ما نمليه عليك فاستمع لما سأقول، لما عاشرت البشر وجدت فيهم خصلة دائمًا ما كانت تثير حنقى وغضبى، كلهم ممثلون، ممثلون بارعون، الجميع يخادع الجميع، الكل يداهن الكل، كل يقول عكس ما يبطن، كلهم منافقون مخادعون، زوجتى وابنى الذى تركنى، ومدير المصنع وزملائى وأقاربى، كلهم، كلهم أوغاد، انتقامى

سيكون كالآتى، لا لن تحرقهم أو تقتلهم فأنت بهذا تريحهم، أريدك أن تكشفهم وتفضحهم أمام أنفسهم، فليعلم كل امرء ما يدور بخلد الآخر وباطنه، أريد ما فى النفوس أن يكون ظاهرًا بينًا للعيان، أن يتعرى الجميع أمام الجميع، لا يمكن لأحد أن يبطن أو يخفى، ما يدور فى ذهن الجميع يعلمه الجميع، فليتعاركوا وليتخاصموا فهم أهل خصومة وفجر، فلتنشب الشجار بين كل اثنين خُدعا فى بعض، فلتنشب بين كل اثنين دبرا لبعض مكيدة أو أضمرا شرًا، هكذا أشفى غليلى وتنطفئ نار ظلمى، هل لك أن تفعل هذا؟".

-"أخبرتك إنى رهن إشارتك".

قال العجوز:

-"يا لها من فكرة، لم تخطر لى على بال".

-"حسنًا إذًا قررتما الانتقام واتفقتما على الطريقة، اتركا لى يومًا أو اثنين وستميد الأرض بطوفان من الكراهية والغضب بعده ستشتعل الأرض بمن عليها، فلا تجد إلا كل امرء وقد صار وحده، فلن يثق أحد فى غير نفسه بعد الآن".

فى ثوانٍ تلاشى من المكان فجأة وبلا مقدمات، نظر العجوز إلى(أ) مبتسمًا متفائلًا بما سيجرى، فبادله(أ) الابتسام منفعلًا من فرط سعادته بالفكرة وبما سيجرى فى الأيام القادمة.

لو أنك خرجت الآن وسرت فى أحد الشوارع لرأيت حادثة أو أمرًا مريبًا، لرأيت رجلين أو أكثر، امرأتين أو يزيد، وقد أمسكوا بتلابيب بعضهم

البعض، هو أمر يثير الشك لكنه ليس مريبًا بحال من الأحوال، ربما سيكون مريبًا لو علمت أن فى كل شارع وزقاق، فى كل شقة ومكتب عمل، فى كل شركة ومصنع، فى كل مدرسة وجامعة، هناك أمرٌ ما يجرى وهو مشابه لما ترى الآن، ربما أنت فى حاجة إلى منظور الطائر كى ترى كل شىء فى نفس الوقت، ربما لو ارتفعت فعلًا إلى مستوى الطيور لرأيت، لرأيت هذا الشجار الذى يدور هناك، وتلك المعركة التى تجرى هنا، لرأيت أحبة يفترقون من دون ندم أو حزن بل فى غضب واشتياط، لرأيت زبائن يتعاركون مع تجار وأصحاب محال وفى لحظة يقتحمون تلك المحال وكأنهم قد أصابهم سعار أو جنون جماعى، لرأيت أزواج يطردون زوجاتهم من بيوتهم وزوجات يطردن أزواجهم من بيوتهن، لرأيت ذلك الشاب الذى أخرج مطواة من جيبه وطعن صديق عمره أو هكذا كان يظنه يومًا، لرأيت الجيران فى البيوت وزملاء العمل وقد بدأوا عراكًا حقيقيًا بدأ بالسباب ولم ينته بالاشتباك بالأيدى والضرب، لرأيت أسر تتفكك وصلات تتمزق ومشاريع تخرب وتتوقف، أعمال تتعطل وعقود تمزق، صفقات تتوقف وأموال من البنوك تسحب، حالة من الجنون الجماعى، وكأن الشيطان بذاته صار يقود الناس ويحركهم، كل يوم بل كل ساعة جريمة قتل، عجزت الشرطة بل الجيش عن السيطرة على الأمور، بل إنه بعد وقت ليس بقصير بدأت مشكلات تدب فى أفرادهما، زادت المشاكل فانقسم كل على نفسه كل فصيل بما لديهم فرحون، أيام وانقسم الانقسام على نفسه، صار الناس فرادى فى الشوارع لم يعد أحد يثق بغيره حتى فى

أهل بيته بعد أن رأى وسمع وعلم ما يدور فى بال غيره، كل يكيل الحقد ويدبر المكائد لغيره، كل يضمر شرًا وحسدًا لغيره، فكيف يثق بعد الآن فى أحد، التجار يغشون وأصحاب الصفقات مخادعون، الأزواج مراهقون والزوجات عاهرات، الأحبة خائنون، الأصدقاء يمثلون، الأبناء لموت آبائهم يتمنون ويتعجلون، صار كل يبادر بالهجوم قبل أن يتم التهامه فى هذه الغابة الآدمية، لم تعد ترى شخصين معًا ربما لن ترى إلا أمًا وقد احتضنت أبنائها تحميهم من هذا الجحيم، عمت الفوضى المدينة، ولم يعد أحد يملك الوقت ليتساءل عما يجرى فالكل كان ملهيًا بهؤلاء الذين يدبرون ويخططون لإيذاءه، استغل الفوضى اللصوص أو ضحايا المجتمع بمعنى أدق، هجمة كبيرة فى أنحاء المدينة على المتاجر والمحال الكبرى والصغرى، سرقات فى البيوت والفنادق، الشركات وأماكن العمل، بعدها هجمة على البنوك، نهب كل شىء حتى السيارات سرقت ومن فر فقد نجا، معدل جرائم القتل ارتفع بل قفز لأعلى معدلاته، السرقة صارت عادة يومية، الاغتصاب بات أمرًا طبيعيًا، باختصار صار البقاء للأقوى فانتشر السلاح مع الأهالى وصار توصيف الوضع هو حرب أهلية بلا زيادة أو نقصان، هل كان هذا ما يرجوه(أ)؟ ربما لكن الأمر تفاقم وزاد عن هذا، فصار هذا التوارد والتخاطر أمرًا شائعًا عامًا لا يعترف بحدود الزمان والمكان، فما جرى فى هذه المدينة جرى فى كل مدن العالم وصارت الأرض تميد بجنون أهلها، ولا أحد يستطيع أن يسيطر على الوضع، ربما الدول الكبرى تماسكت ولم تنهر سلطتها وقيادتها، لكن لعنة التوارد

انتقلت إلى قيادات الدول فكل دولة كانت تضمر شرًا وتبيت خطة غير معلنة للهجوم أو الاستيلاء على دولة أخرى صارت هذه الخطط معلومة ومعلنة للعالم أجمع، فلم تتوان الدول التى شعرت بالتهديد ولم تتمهل فأمنها الخارجى فى خطر، دعك من أن الأمن الداخلى انهار فتلك مشكلة صارت عامة الآن، أخرجت معظم الدول سلاحها على الحدود المتاخمة للعدو، وبدأ الضرب ومعها بدأت تحالفات وانقسامات بين الدول لكن لم يدم تحالفًا واحدًا والسبب معلوم، كل شىء صار مرئيًا ومعلومًا حتى لو كانت فكرة بسيطة طرأت على بالك ثم استبعدتها بلغ الشك مبلغه ولا مجال للتفاهم، وهكذا فى غضون ما يقل عن الشهر عم الجنون الأرض وصارت جميع الدول تحارب جميع الدول، فوضى عارمة ولم ينج إلا اثنين؛ من صار وحده وابتعد عن الناس وأماكن المعارك، ومن صار الشيطان حليفه ومنفذ خططه وحارسه الشخصى.

إلى هذا الحد كان(أ) والعجوز فى حالة لا توصف من السعادة بل من الفخر وكأنهما قد صنعا إنجازًا، كانا يحتفلان كل يومٍ تقريبًا، يحتفلان كلما زادت الفوضى، يحتفلان كلما زاد عدد القتلى، يحتفلان كلما زادت حدة المعارك على الحدود، كان(أ) يتخيل زوجته السابقة مع هذا الذى تزوجها-كما علم مؤخرًا- وكيف صار حالهما، كان قد عرج على المنزل فوجده خاويًا على عروشه وآثار دمار بداخله، كان يتخيل منظر مديره السابق، بالتأكيد تهشمت نظارته السوداء أو ربما سرقت، كل أصدقائه وزملائه هل قتلوا، بالتأكيد يتمنى فليذهبوا إلى الجحيم، صاحب السيارة التى صدمته إن لم

يكن قد قتل وسرقت سيارته بعد فبالتأكيد عما قريب سيحدث هذا، ولم يختلف إحساس العجوز عن إحساس(أ) ونشوته بحال من الأحوال.
مع مرور الوقت لم يعد لا(أ) ولا العجوز يشعران بخطورة الوضع، كل يوم آلاف الضحايا على مستوى العالم، حرائق ودمار فى كل مكان، لعنة أصابت أهل الأرض فهل هناك من خلاص؟ وهل لهذا الوضع من مناص؟ لا أحد يعلم، الله وحده يعلم.
فى أحد الأيام خرج(أ) ليتجول فى شوارع المدينة، فلم ير إلا أطلالها، لم يعد هناك شىءٌ فى مكانه، وكأن الدنيا انقلبت رأسًا على عقب، صارت وكأن فيضان قد اجتاحها أو زلزالًا قد ضرب أرضها أو بركانًا أحرقها فلا ترى منها إلا رمادها، كأن شياطين الإنس والجن قد عبثوا بها، جثث عفنة وأخرى طازجة-إن صح التعبير- متناثرة على امتداد الطريق، سيارات محترقة، مبانٍ تحولت لأطلال، متاجر حطمت واجهاتها ولم يتبق بها شىءٌ ليسرق، فقد سرق كل شىء، كانت الشوارع شبه خاوية وكأنها مدينة مهجورة، لا يذكر(أ) متى تملكه الذهول بالضبط ربما مع مرور الوقت وبشاعة ما يرى بدأت تنتابه حالة من الدهشة والمفاجأة من حجم الدمار وعدد القتلى ومقدار البؤس الذى أصاب المدينة، طوال الأشهر الماضية كان هو والعجوز فى خوضهم يلعبون كانوا فى غمرة ساهون، والناس هاهنا يقتلون ويذبحون، هل استفاق(أ)؟
هو استفاق من تيه الانتقام وفخره، استفاق من نشوة الانتصار ووهمه، لكن المفاجأة التى أصابته الآن لم يكن ليفيق منها، على الأقل الآن،

لم تتوقف قدماه عن الحركة، واصل المسير ببطء، يسأل نفسه هل هذا ما أراده ونفسه تنفى، يحاول أن يقنعها لكنها تأبى أن تصدق، صار كالضرير الذى فقد دليله أو ضاعت عصاه، لم يعد يرى أمامه أثناء سيره، وطئت قدمه شيئًا طريًا فانتبه، نظر تحت قدميه فإذا به جسد صبى لم يتعد الاثنى عشر عامًا، ليست أول جثة لطفل يراها لكن هذا الطفل كان مألوفًا نوعًا ما، دقق(أ) النظر فى ملامح الصبى فإذا ذلك الصبى الذى كان بصحبة والده حينما صدمته السيارة، تذكره(أ) وتذكر كيف حاول الطفل مساعدته لولا تعنت والده، ذرف(أ) دمعة سالت على خده، نهض وقد ازدادت الغشاوة أمام ناظريه، فى الطريق الذى كاد الظلام أن يغمره وعلى ضوء نيران إحدى السيارات المشتعلة رأى جثة الموظف، ذلك الموظف الذى ساعده بالمال حين ضاقت به السبل، لم يطل النظر إلى وجهه، شعر بتأنيب ضمير فلم يحتمل، تمنى لو يعود إلى النزل فهو أرحم وأرأف بحاله من هذا الجحيم الذى عم فى كل ركن ومكان، أخذ يسرع الخطى عائدًا إلى النزل، لكنه وعلى بعد أمتار وجد جثة علقت من رقبتها فى عمود الإنارة فتدلت، رأى هذا المشهد مرارًا فى التلفاز لكن على أرض الواقع الأمر مختلف، جد مختلف، دنا قليلًا فخيل إليه أن هذا بالذات هو رجل الأمن الذى أصر على إدخاله وعلاجه بعد أن صدمته السيارة، شعر وكأن شيئًا ما يطارده ربما أرواح الجثث، ربما إبليس، أو ربما نفسه هى التى تطارده، أخذ يجرى فى الشارع كالمجنون، يصرخ ويهرتل بكلام بلا معنى، فلما اقترب من الفندق سمع صراخ فتاة فى أحد الشوارع الجانبية،

صراخ كالنحيب لا ينقطع وتوسلات لا تتوقف، أخذ يبحث عن مصدر الصوت فى رعب، لم يستطع أن يحدده فدار حول المكان مرارًا والصراخ يستمر وقبل أن يتوقف كان قد دنا من مصدر الصوت، توقف الصراخ فتحول إلى نهنهة وبكاء مرير مكتوم يمزق القلوب، كان فى أحد الأزقة، رآها وليته لم يفعل، وجدها وليته قد ضل طريقه، هى لا مفر ولا مجال لخداع النفس، هى، قد تكومت فى إحدى الزوايا، ملابسها ممزقة أو ما بقى منها، الدماء تسيل من بين فخذيها ومن رقبتها، آثار ضرب على وجهها، تبكى بلا انقطاع، ولم تجد إلا سترته فغطت بها جسدها شبه العارى، لم يصدق ما يرى، لدقائق ظل واقفًا فى مكانه مبهوتًا مذهولًا، لم يدر كيف له أن يتصرف، لقد وصل متأخرًا، الفتاة التى طلبت مساعدته شخصيًا قد اغتصبت وهو السبب، هو المسؤول الأول والأخير، لم تره وتمنى ألا تفعل، ولما فعلت تمنى لو تموت أو يموت هو، لم تكن تنظر إليه لكن وجودها فى حد ذاته كان يشعره بعار لن يمحى إلا بزواله أو زوالها، نحيبها كان يذيبه ويحرق أعصابه أو ما تبقى منها، كان يتمنى لو يتلاشى من أمامها فى هذه الحظة، فقط لو التقت عيونهما لتبخر عارًا وخجلًا فى الحال، فكر أن يتركها ويركض هاربًا من هذا الجحيم لكن نفسه لم تطاوعه، دنا منها ببطء، انحنى عليها بخوف، تفقد حالها بحسرة ورعب، فى مؤخرة رأسه ذلك الصوت الذى لم يعهده من قبل يصرخ فيه بقوة، هذا من فعل يديك، لكن عقله الباطن والحاضر يأبيان أن يصدقا حقيقة كهذه، كل حواسه ترفض وتنكر بشدة، ليس هذا ما طلبه من

إبليس، لم تكن هذه خطته، لم يكن هذا هدفه ومراده، عليك اللعنة يا إبليس فقد أفسدت الأمر، افسدت الأمر برمته، أقسم أنى لن أتركك، استفاق(أ) من خيالات معاتبته لإبليس على صوت الفتاة يرتفع أنينها قليلًا، أحكم(أ) إغلاق السترة على جسد الفتاة حملها بصعوبة بالغة وهم بالعودة إلى الفندق لكنها نظرت إليه بوجه شحب شحوب الموتى وبعيون خضبت بلون العتاب لو أن للعتاب لون، كيف عرفت؟ وفجأة تدلى رأسها وازداد وزنها شيئًا، ارتجف جسد(أ) بقوة، صارتا قدماه لينتين كالعجين، خيبتا ظنه، سقط أرضًا على ركبتيه، شعر بالدم يسحب سحبًا من أم رأسه، دق كطبول الحرب فى أذنيه، غشاوة ثقيلة تتكون ببطء أمام ناظريه، لقد انهار كل شيء، كل شيء.

أفاق(أ) على صوت غراب جاء ينكأ جسد الفتاة المسجى على الأرض بجواره يتذوق هذه الوجبة التى لم تفسد بعد، ضربه براحة يديه فصرخ معترضًا وانصرف مهددًا، نظر(أ) حوله لم تكن الرؤية واضحة تمامًا رغم أن النهار كان قد حل لكن يبدو أن من كثرة الحرائق وسحب الدخان الكثيفة التى لا تتوقف تكونت غمامة وغشاوة فى سماء المدينة، كاد(أ) يبكى فقد تمنى من داخله لو يرى قرص الشمس واضحًا، تمنى شعاعًا أو بصيصًا يشعره أن الحياة ما زالت مستمرة، نهض بصعوبة ورفع الفتاة حاملًا إياها على ساعديه وتوجه إلى أقرب مكان يمكنه أن يدفنها فيه، على بُعد أمتار حديقة عامة أو بالأصح كانت حديقة قبل أن تصير رمادًا، أخذ(أ) يحفر بكلتا يديه بقوة ثم بفتور ثم بوهن، استمر على هذا ساعتين على الأقل

ولما انتهى حملها ووضعها برفق فى مكانها الأبدى والأخير نظر إلى وجهها نظرة أخيرة، كيف لهذا الملاك أن يتعرض لما تعرضت له؟ انتابته رعشة هزت جسده بقوة وشعر بغضب شديد فلم يحتمل منظر الفتاة وهى مسجى جسدها فى قبرها، فعقد العزم فى هذه اللحظة أن هذا الوضع يجب أن ينتهى وبأسرع ما يمكن، دفع التراب بكلتا يديه حتى توارت تمامًا عن ناظريه فشعر براحة نسبية، بحث عن أى شىء يضعه كعلامة على قبرها يميزه لعله بعد ذلك يزوره، بحث حتى وجد عمود خشبى صغير فغمده فى التربة بقوة وانصرف ميممًا وجهه شطر الفندق، تحديدًا شطرالعجوز وصاحبه.

على عجلة سار إلى الفندق دفع الباب أمامه بقوة فلم يجد أحد فى الرواق، أخذ يدور ويبحث حتى سمع صوتًا مصدره الدور الأول، صعد الدرج لا أحد فى الردهة، سار متتبعًا الصوت حتى وصل إلى شرفة كبيرة لم يكن يعلم بوجودها أصلًا، شرفة كبيرة تطل على المدينة بأكملها، لو كانت مرتفعة بعض الشىء لرأيت المدينة كلها، دخل(أ) متوجسًا فوجد العجوز مستلقيًا على أريكة هى أشبه بسرير وأمامه منضدة مذهبة وضع عليها صنوف من الفاكهة، وكان العجوز ممسكًا بسكين يقوم باقتطاف عنقود عنب، وقد بدا أنه فى حالة مزاجية رائعة، كان أمامه تلفاز كبير يعرض السعار والجنون الذى أصاب العالم بلا سبب، ويبدو أن العجوز كان منتشيًا فخورًا لأنه هو السبب، لما رآه العجوز لم يعرفه فى البداية فقد كانت ملابسه ممزقة وما بقى منها قد لطخ بالدماء، اسود وجهه وثار

شعره وعلامات الذهول بعينيه، فظنه أحد الذين أصابتهم اللعنة وقد جاء يعتدى أو يسرق فأشهر السكين فى وجهه، لكنه هدأ وسكن لما تبين معالمه.

-"تبًا، ما الذى جرى لك؟"

-"طبعًا أنت لا تعلم شيئًا، فأنت لم تخرج من الفندق منذ أيام".

-"لا أعلم ولا أريد، كل ما أدريه إنه الجحيم بالخارج، كيف سولت لك نفسك أن تخرج؟!"

-"فقط أردت أن أتجول قليلًا".

-"تتجول؟! وماذا رأيت؟"

-"رأيت الجحيم بأم عينى، رأيت البشاعة والموت بمقلتى، رأيت عزرائيل يقبض الأرواح بالجملة، رأيت أطفال رضع تحولوا إلى أشلاء واحترقوا وصاروا رمادًا، كل شىء فى المدينة صار رمادًا أو دماءً، لم تبق ورقة واحدة خضراء فى المدينة، لم تعد هناك نقطة مياه إلا واختلطت بأبحر من الدم، هذا ما رأيت، هذا ما رأيت!"

بهت العجوز مليًا ثم أجاب مستنكرًا:

-"ألم يكن هذا طلبك وسؤلك؟ فقد أوتيته".

-"لم أتخيل أبدًا أن الأمر سيصل إلى هذا، أبدًا!"

-"بل قل الانتقام أعماك".

-"هل تلومنى؟ أنت السبب فى الأصل والأساس".

-"لا أُنكر أنى حرضتك، لكنى وجدت منك حماسًا وفيك استعدادًا، أنا

لم أرغمك على شىء".

-"حسنًا على أية حال، هذا الوضع يجب أن يتوقف على الفور!"

-"ماذا؟ هل جننت؟ يتوقف؟ أنا أعيش فى نعيم مقيم هنا يا عزيزى، كل أمنياتى تصير حقائق على الفور، حتى إن إبليس وعدنى بأن يعيد إلى شبابى وعافيتى بعد أن يقضى العالم على نفسه".

-"ثم ماذا؟ ستعيش وحدك؟ أى بؤسٍ هذا!"

-"بؤس؟ تحدث عن نفسك، يكفينى أن أرى كل من ظلمنى وهو يحترق فى شر أعماله".

-"حسنًا لقد احترق الجميع، من ظلمك ومن لا يعرفك أصلًا؟ ما الداعى للاستمرار فى هذه المهزلة؟"

-"هل تظن أن إبليس يلهو معنا؟! حتى لو طلبنا منه أن يتوقف فلن يفعل".

-"إذًا ما الحل؟"

-"لا حل".

-"سأمزق العقد".

هنا أمسك العجوز بتلابيبه وقد منح قوة لا يعلم إلا الله مصدرها وألقاه أرضًا.

-"إياك أن تفكر فى هذا الأمر أيها الأحمق، إياك!"

استدار العجوز وعاد ليستلقى على أريكته، نظر(أ) من مكانه فوجد سكين الفاكهة ما زالت أمامه، انقض عليها وبسرعة غمدها حتى النصل

فى صدره، أخذ العجوز يتنفس بصعوبة، يريد أن يصرخ لكن بح صوته وكتمت صرخاته، نظر له فى حنق وغيظ بالغين، حاول أن يمسك بتلابيبه، تمنى لو يبصق فى وجه، أخذ جسده يرتجف ويهتز بعنف، ثم أسلم لأمر ربه فى آخر الأمر، أخذ(أ) يبحث بسرعة متلهفًا فى جيوب العجوز عن العقد؛ فقد كان ظنه إنه لو مزق العقد لعاد كل شىء إلى ما كان عليه، عثر عليه أخيرًا وهم أن يمزقه فظهر له إبليس، وكان يبدو من معالم وجهه إنه غاضب حانق ساخط، ظل ينظر إليه بعينين كالجمر تشوى الوجوه، بل تشوى كل ما أمامها، أغمض(أ) عينيه ومزق العقد فجأة، فقد كان يعلم إنه لو لم يفعل الآن لما فعل أبدًا، احتال لون إبليس أسود قاتم، ربما من أثر غضبه وسخطه، وربما من أثر تمزيق العقد، لا يعلم ولا وقت ليفعل، فمن الواضح أن إبليس سوف يفتك به لا ريب، لم ينتظر(أ) مرحلة الفتك فركض خارجًا من الشرفة، وأخذ يصعد الدرج بكل ما أوتى من سرعة، هو لا يعلم إن كان إبليس يطارده أم لا، لكن لا بديل عن الركض، وصل (أ) إلى الطابق الأخير وهو على وشك أن يصاب بذبحة صدرية، خرج(أ) إلى الشرفة عله يرى قبل أن يموت هل عاد أى شىء إلى نصابه؟ أو حتى توقفت عمليات الحرق والقتل والاغتصاب؟ لم يمهله إبليس فقد بدا فى بداية الردهة، وكان غاضبًا بحق، انطلق نحوه بسرعة رهيبة، هنا قدر(أ) أن إبليس ربما لا يقتله بل ربما يعذبه أو يتلذذ بالانتقام منه، فقرر(أ) أن يقفز من الشرفة وليكن ما يكون، هذا أقل ما يستحقه عقابًا لما فعل وما اقترف، وقف(أ) على سور الشرفة نظر وراءه فكان إبليس ما زال

يقترب، نظر أمامه فكانت مدينته ما زالت تحترق، أو هكذا بدت، عقد (أ) ساعديه على صدره، أغمض عينيه بقوة وألقى بنفسه، وأخذ يهوى لأسفل، لأسفل، قلبه كاد يخرج من بين أضلاعه هلعًا، ظل يهوى لزمن لا يعلمه إلا الله، فالزمن بالنسبة له كان قد توقف أو كاد ينتهى، فجأة شعر أن الإضاءة من حوله قد ازدادت حدة وشدة، كان على وشك الارتطام بالأرض، لجزء من الثانية تمكن(أ) من أن يفتح عينيه، لجزء من الثانية وقع بصره على قرص الشمس واضحًا بينا جليًا للأعمى، أو لمنتحر، لجزء من الثانية تلاشت السحب والضباب من أمام ناظريه، تمنى لو يمهله القدر ثوانىَ أخرى ليستوثق، لكن...

انتحار رجل سكير

لا أدرى ما الذى دفعنى للقيام بهذا الأمر، فقد قررت أن أختبر زوجتى، أنا أعرف إننى لعوب وزير نساء ورائحة الخمر لا تفارق فمى، لكنى قررت أن أختبرها، كان هذا عملًا دنيئًا منى، لكنى لم أفكر فيه مرتين، قررت أن أرسل لها رجلًا فى غيابى ونقدته مبلغًا تافهًا مقابل أن يحاول أن يستميل زوجتى لقضاء سهرة معها، كانت زوجتى طيبة ومن أسرة كريمة، وكنت أيضًا ابنًا لأحد أعيان المدينة، وكانت لى وظيفة محترمة فى مبنى الحكومة، لكنى مذ عاقرت الخمر تغير كل شىء ولم أعد أسيطر على نفسى.

كانت هى تعلم كل تحركاتى المشبوهة وصارت تتقزز منى وتنفر بعد أن فشلت فى إقناعى بالعودة والاستيقاظ مما أنا فيه.

وفى يوم انتقيت رجلًا من الميناء، فتى البنية، حسن الملامح، يعمل حمالًا، لذا وافق على العرض، فكلهم هنا فقراء.
كنت أعرف أنها سترفض، وكنت أتمنى أن ترفض، الجزء الرجولى منى بالتحديد كان يتمنى هذا، لكن جزء آخر داخلى لم أتمكن من إخفائه كان يتمنى أن توافق، لماذا؟ لأننى كنت أريد أن أثبت لنفسى إننى لست الوحيد النجس فى هذا الكوكب، إن الجميع شرفاء حتى تحين أول فرصة للبغاء، إنها سيئة مثلى بالضبط، لا فارق على الإطلاق.
اتفقنا على الليلة، سأكون بالخارج وسأبيت بالخارج، وسأؤكد عليها أننى لن أتواجد فى البيت ليومين على الأقل.
كان التنفيذ مساء الخميس، فليقضيا ليلتهما بدون منغص، وليبيت الشيطان ليلته معهما، وقفت من بعيد أراقبهما، وقف لدقائق على الباب، فتحت له، ظلا واقفين لربع ساعة تقريبًا، ثم لدهشتى، اصطحبته للداخل
.
تبًا لك أيتها العاهرة، كنت متأكدًا أنك دنسة، تتغنين بالشرف وأنتِ وإبليس سواء.
انتظرته فى المكان الذى اتفقنا عليه يوم الجمعة لكنه لم يأت، ربما لا زالا بالمنزل معًا، قررت أن أتركهما يومًا آخر.
مرت ثلاثة أيام ولم يظهر، سألت عنه فى الميناء قالوا إنه لم يأت، بحثت عنه فى الحانات المحيطة لكن لم أجده، عدت إلى المنزل، بدا خاويًا، صعدت للغرفة، لا أحد، أين ذهبت تلك الملعونة، كانت كل ملابسها

قد اختفت، جواهرها، أحذيتها، عطورها، كل شىء، ورقة فقط طويت نصفين ووضعت على الكومود وبخط منمق هو خطها كتبت:

«لقد اعترف لى الرجل الذى أرسلته بكل شىء منذ فتحت له الباب، كان دمث الخلق على نحو أثار إعجابى وفضولى، أنت خسيس وجبان قذر، ولست رجلًا ولن تكون على الإطلاق، على كل حال لقد قررت أن أتركك، منذ اللحظة أنا لست زوجتك، وقد رحلت مع هذا الفتى الرائع النبيل، وسنتزوج فى أقرب وقت، اشبع أنت بالمنزل واستضف فيه عاهراتك، تذكر فقط شيئًا واحدًا، أنت وحدك النجس هنا، أنا لست مثلك، لا أحد مثلك أيها البائس الدنئ».
بعد أيام عثروا على الرجل ميتًا، مستلقيًا على الفراش، وفى يده ورقة ضمها إلى صدره، ووجهه متقلص بشدة.

ظلٌّ شاحبٌ لرجلٍ غريب

-«أنا لعين، أنا برىء، أنا صادق، أنا كاذب، أنا مغرور، أنا متواضع، أنا اجتماعى، أنا أكره البشر، أنا طيب، أنا قاسٍ، أنا أعرف الكثير، أنا لا أعرف شيئًا على الإطلاق، أنا ذكى، وربما من فرط غبائى لم أدرك بعد أننى غبى، وأقسم لكم يا سادة أن كل صفة ذكرتها لى عليها ألف دليل، وألف قصة، وألف ألف موقف».

ربما بسبب قولى هذه الجملة-عفوًا من دون قصد- أثناء حوار عادى مع زملاء لى فى الشركة قرروا إرسالى إلى هذا المكان الغامض، لم أكن أفهم شيئًا مما يحدث، فقط حددوا لى يوم وأخبرونى أن فحوصات هامة يجب أن يتم إجراؤها لى، ذهبت إلى العنوان الذى ذكروه، كان بناية متهالكة

قديمة، لكن البناية كانت عادية مقارنة بما رأيته بعد هذا.
فى ذلك اليوم قادونا خلال ممر ضيق قذر تحت الأرض كى نُجرى عدد من الفحوصات التى لا أعلم عنها شيئًا، كان المكان مظلمًا، رائحة عطنة تجثم على المكان، نسير فيما يشبه ماسورة للمجارير، كان الطابور طويلًا، عشرات من الأفراد، أنا واثق أن أحدًا منهم لا يعرف ما الذى يفعله هنا بالضبط، أغلبهم مثلى، جاء بأوامر من مكان عمله.
بعد ما يقل عن الساعة بقليل، وبعد كثير من الانحناءات والدورانات توقفنا، ونادى فينا رجل قصير القامة غليظ الصوت أفطس الأنف عظيم الكرش أحمر الوجه، صرخ آمرًا أن يخلع الجميع ملابسه كلها، كان هذا غريبًا وكنت على وشك الاعتراض، لكنى فوجئت بمن أمامى يبدأون فى الانصياع لهذا الأمر، نظرت حولى، ألن يعترض أحد؟! تبًا لكم، وللأسف بدأت فى تنفيذ ما طلبوه، وصرت عاريًا، اللهم إلا ما يوارى سوأتى.
بدأنا بخلع ملابسنا ببطء فى البداية، ثم انتهى بنا الأمر عراة فى مشهد مريب ومشين، لكن لم يكن هناك مجال للخجل، والمكان مظلم إلى حد كبير على كل حال، بدأ الطابور يتحرك ببطء، بدأت أشعر بالبرد، فربما نحن تحت الأرض نعم، لكن البرودة بدأت تحل مع المساء.
بعد حوالى نصف ساعة كنت قد وصلت إلى مقدمة الصف، سألنى موظف جالس بعض الأسئلة الروتينية وراح يدونها فى ورقة أمامه، أعطانى إياها وطلب منى أن أتجه إلى الدور العلوى لأُجرى الاختبار،

كان المكان أشبه بمصلحة حكومية، موظفون رثوا الثياب مبعثرو الهيئة، حتى أن بعضهم كان حافى القدمين ولا مبالاة تعلو الوجوه، خجلت فى البداية من وجودى وسط الموظفين والموظفات اللاتى أخذن يختلسن النظر وهن جالسات خلف مكاتبهن.

أخذت أسرع الخطى متسائلًا ترى لم لم يتركونا ندخل بملابسنا ونخلعها فى غرفة الكشف، أخذت أصعد الدرج حتى رأيت فى مواجهتى باب أحمر كبير كتب أعلاه:"غرفة الكشف النفسى"، هى إذًا تلك،

طرقت برفق ثم ولجت، كان حرى بهم أن يكتبوا اكتشاف وليس كشف، جال هذا فى بالى لثوانٍ.

كان بالداخل رجل فى منتصف العمر، لكن جزء من شعر جانبى رأسه قد شاب، يرتدى عوينات ومعطف رمادى اللون، معه مساعدته التى ارتدت ما يشبه رداء الممرضات، كانت ممتلئة بعض الشىء وملابسها ضيقة تفضح الكثير، لم تكن ملامحها مريحة على الإطلاق وتلوك اللادن فى فمها بطريقة مقززة، ما أن رأتنى حتى أخذت تتفحصنى من قمة رأسى لأخمص قدمى، ونظرة تشف وسخرية تعلو وجهها.

زادنى هذا خجلًا ولم أدر ما أفعل، حتى جاءنى صوت الرجل هادئًا واثقًا أخرجنى من حالتى، انصرفت الفتاة تحضر بعض الأشياء، وطلب منى الرجل أن أستلقى على ما يشبه كرسى طبيب الأسنان، استلقيت ببطء وأخذ هو وهى يوصلان بعض الممصات والمجسات فى أماكن كثيرة من رأسى وجسدى، كان كل شىء باردًا كالثلج، المقعد الجلدى، يده ويدها،

ملمس المصات على جسدى، كل هذا زاد من إحساسى بالبرودة؛ فصرت أرتجف.
أعد الرجل ما يشبه الحقنة، أو هى حقنة، وطلب منى ألا أتحرك، وخزها فى رقبتى، لم يكن هناك ألم على الإطلاق، فقط رأسى تدور، جفنى ازداد وزنه، جسدى لم أعد أشعر به، وانتقلت إلى مكان آخر لا أذكر ما هو ولا أذكر أى شىء عنه.
عندما استفقت ولا أدرى كم طال غيابى عن الوعى، وجدت نفسى جالسًا على الرصيف فى أحد شوارع المدينة القذرة، كان الوقت وقت غروب، هل مضى يوم على ما جرى؟ معقول؟ أم ربما أكثر من يوم، أول ما شعرت به هو مكان وخذ الحقنة، تحسست مكان الألم لكن لم ألحظ شيئًا غير عادى، كان الجوع ثانى ما شعرت به، ترى علام انتهى الاختبار؟
تذكرت ما أن استفقت أن الرجل أخبرنى قبل أن أغيب عن الوعى أن تقرير ونتيجة الاختبار ستكون فى ورقة مطوية ستوضع فى معطفى، بلهفٍ دسست يدى فى معطفى فإذا بورقة مطوية، فضضتها بسرعة فإذا بنص النتيجة كالتالى:
"رغم إجراء الاختبار أكثر من مرة إلا أن النتيجة كانت لا تختلف، رغم غرابة الأمر إلا أن هذه حالة متعارف عليها، هى نادرة جدًا لكنها موجودة، صاحب هذا الاختبار هو شخص أغلبه غير حقيقى، أغلبه مفقود، فى الحالات العادية يكون المريض غير واعٍ بالمجهول منه، لكن الجهاز يتعرف على كل شىء ويعثر على الأماكن المجهولة كلها، لكن مع هذه

الحالة لم يتمكن الجهاز من العثور على شىء، وكل ما أظهره على الشاشة هو ظل، ظل شاحب لرجل غريب، هذا الرجل خاوٍ تمامًا».

ظللت جالسًا فى مكانى على الرصيف، أراقب المارة بعين خاوية وعقل ذاهل، والعجيب أننى لم أكن أفكر فى نتيجة الاختبار بقدر ما كنت أفكر فى وسيلة لأخرس بها معدتى التى كانت تأن جوعًا، فربما حينها يمكننى التفكير فى هذا الهراء الذى قرأته للتو.

قررت أن أترك مكانى على الرصيف، أحكمت من إغلاق معطفى تفاديًا لموجة البرد التى تزيد من إحساسى بالجوع، بدأت أتحرك بخطوات بطيئة كئيبة؛ فقد كنت مرهقًا، تذكرت حافظة نقودى تحسست جيبى فشعرت بوجودها، لكن ما أن فتحتها حتى وجدتها خاوية، كما توقعت، سرقوا النقود، لكن على الأقل تركوا لى بطاقة هويتى وبطاقة المصرف.

كنت أسير بلا وجهة، من المفترض أن أتجه إلى منزلى، هذا المكان يبدو غريبًا، لا أذكر أننى رأيته من قبل، رغم أنى أقطن بالمدينة منذ سنوات طويلة، أية وجهة علىّ أن أسلك كى أصل إلى بيتى، لكن مهلًا، أين بيتى أصلًا؟ العنوان! العنوان؟ كيف لا أذكره؟ يا إلهى! أصابنى هذا بتوتر مضاعف، بيد ترتجف أخرجت بطاقة التعريف الخاصة بى، صورتى فى أعلاها وأنا أبتسم فى بلاهة، هل هذا أنا حقًا؟ أبدو سخيفًا.

ما هذا بالضبط؟!

الاسم: مجهول

العنوان: مجهول

الوظيفة: مجهول
الحالة الاجتماعية: مجهول
رأسى يدور، ساقاى ترتعشان، الحافظة تسقط من يدى، أفترش الأرض وفى رأسى سؤال واحد، ما اسمى؟ يا إلهى ألا أذكر هذا أيضًا؟ غير معقول، طمأنت نفسى، ربما هو فقدان ذاكرة مؤقت، من تأثير الحقنة؟! لكنى أذكر ما جرى فى الاختبار، وساعات ما قبل الاختبار، أذكر الممر الضيق ورائحة العطن، أذكر الرجل الغليظ والموظف الروتينى، أذكر نظرة تلك الفتاة وملمس الممصات البارد على جسدى، علىّ أن استشير طبيبًا، لكن ألا يجدر بى العودة إلى المنزل؟ لكن ما هذا الهراء على البطاقة؟ هم بدلوها بالتأكيد، هناك من يعبث معى، أنا واثق مما أقول، هناك من يتظارف ويظن نفسه خفيف الظل هنا.
تفحصت جيوب معطفى مرارًا وتمكنت من استخراج بضعة جنيهات، ربما تكفى وجبة حقيرة فى مطعم أحقر، ولجت فإذا المكان حانة بائسة كئيبة الجدران، ونادل طويل اللحية ينظر لى باحتقار لا أدرى سببه، كان المكان ضيقًا تقريبًا ثمانى مناضد مستديرة، واحدة فقط كانت شاغرة والبقية عليها خليط عجيب أغلبه سكير أو شارد فى اللاشىء.
اتخذت المنضدة الوحيدة الشاغرة وطلبت شطيرة لحم مقدد متمنيًا ألا يكون لحم فئران، أومأ الساعى لى بعد أن حدجنى بنظرة ريبة ممزوجة بازدراء لا أدرى سببه، كان الجميع يثرثر مع رفيقه وعلى الرغم من ذلك كان المكان هادىء بشكل كبير، أتاح هذا لى فرصة كى أفكر فى هذا الذى

جرى ويجرى، أخرجت حافظة نقودى الفارغة مجددًا، بطاقة الهوية لا تبدو جديدة، هى بالية كما كانت، كيف حدث هذا، كان من الطبيعى أن أعود إليهم مجددًا، ربما هذا هو ما سأفعله بمجرد أن ألتهم شطيرتى.

على المنضدة المقابلة رجل يرتدى معطف أسود ورابطة عنق مفكوكة أسفل منه، يبدو فى الخمسينات تقريبًا، أصلع بالكامل، بالتأكيد ما يحتسيه خمرًا فوجهه كان شاحبًا، وعيناه جاحظتين، كان لا ينفك يلقى علىّ نظرة متفحصة بين الفينة والأخرى، بعد دقائق جاء النادل الذى يكرهنى دون سبب محملًا بالشطيرة، يمكننى أن أقول إنه ألقاها أمامى إلقاءً، هممت بإعادة البطاقة إلى حافظة النقود فرائحة الشطيرة أثارت معدتى.

فى تلك اللحظة فوجئت بالرجل الأصلع يتجه ناحيتى:"هل لى أن أجلس؟"، بصوت عميق قال، أومأت له أن يجلس وإن لم أكن فى حاجة إلى صحبة على الإطلاق، لكن شيئًا ما جعلنى أوافق، كانت رائحة الخمر تفوح منه بقوة، ما أن جلس حتى مد يده لى كى يرى البطاقة، ناولتها إياه، لم يطل النظر فيها، ولم تبد عليه أمارات دهشة، بل بدا وكأنه كان يتوقع أن يرى ما رآه، أعادها إلىّ ولم يقل شيئًا تقريبًا،"إنه وجبتك نحن فى حاجة لأن نتحدث قليلًا". تساءلت حائرًا:"هل تعلم عن الأمر شيئًا؟"،"فقط إنه وجبتك"، أجاب باقتضاب.

ظللت أنظر إليه متعجبًا وشبه مشمئز، وهو يواصل احتساء الخمر الرخيص فى نهم، وواصلت التهام الشطيرة.

-"هل ذهبت إليهم؟ أعنى هذا الاختبار اللعين؟"

-"أممم، نعم، كيف عرفت؟"

-"ووجدت نفسك ملقى على الرصيف المقابل؟"

-"بالضبط!"

-"نتيجة الكشف، هى لا شىء أليس كذلك؟"

-" كيف عرفت كل هذا؟!

-"لأننى كنت هناك، وقد وجرى معى نفس الشىء".

-"تبًا!!"

-"فعلًا تبًا".

-"إذًا هل تعرف شيئًا أو تفسيرًا ما؟"

-"فقط إنه وجبتك اللعينة، سأنتظرك بالخارج، فهذا المكان صار كئيبًا جدًا".

أنهيت طعامى بسرعة فقد تقت إلى تفسير ما لهذا الهراء الذى يجرى، ما أن عبرت الباب خارجًا حتى لفحتنى موجة البرد من جديد، وجدته واقفًا ينتظر بالجهة المقابلة، بدا شكله مريبًا بمعطفه ورأسه الأصلع الذى كان يلمع تحت ضوء القمر.

-"حسنًا، ما الذى يجرى بالضبط؟"

-"فقط سر معى قليلًا".

-"إلى أين؟"

-"ستفهم كل شىء حين نصل، المكان ليس بعيدًا".

بالفعل لم يستمر مسيرنا سوى نصف ساعة تقريبًا، مررنا خلالها بأماكن تبدو مألوفة لى لكنى لم أتعرف إلى أى منها، هل نحن فى نفس المدينة؟ كدت أن أسأله لكنه كان عصبى المزاج.

فطنت إلى أننا نتجه ناحية بناية عتيقة من خمسة أدوار أو ستة، عتيقة إلى درجة أن طحالب قد نمت وغطت جانب البناية بالكامل، حتى أن مدخلها كان مظلمًا، ولولا إضاءة من الأدوار العليا لما رأينا شيئًا على الإطلاق.

-"هنا؟"

-"نعم، لا تقلق".

جال فى بالى إنه كان من الحكمة ألا اصعد معه، لكنى تذكرت أننى لا أملك شيئًا ليسرقه، ثم هو عرف بأمر الاختبار دون أن أخبره، فربما هو بالفعل يعرف شيئًا ما، واصلنا الصعود ببطء، كل شىء مردوم بالتراب، السلم والجدران، كل شىء.

وصلنا إلى الطابق الثالث، لم يطرق الباب كانت معه مفاتيح كثيرة انتقى منها واحدًا، فتح الباب بصريرٍ مزعج، أشار لى كى أدخل، كانت شقة متواضعة جدًا بل حقيرة، بالداخل كان حوالى اثنين ستة ثمانية،

ثمانية أشخاص ينتظرون بالداخل، أربعة منهم اتخذوا مجلسًا فيما بينهم يتناقشون بشأن أمر ما، والأربعة الآخرين كل اثنين اتخذ من الآخر رفيقًا، ما أن صرنا بالداخل وأغلقنا الباب حتى توقف الجميع عما يفعلونه ونظروا كلهم إلىّ بانتباه بارد، كل الأنظار ثبتت على فنظرت إلى رفيقى مستفهمًا

لم أدر ماذا أقول فلم أعثر سوى على:"مساء الخير"، بصوت مهتز، لكن أحدًا لم يرد التحية، هنا أشار لى رفيقى:

-"اجلس، اجلس من فضلك".

اتخذت المقعد الوحيد الخالى ونظر الجميع إلى رفيقى، وكان باديًا إنه هو من سيبدأ الحديث،

وبالفعل بدأ.

-"حسنًا يا سادة أعتقد أنكم جميعًا تعرفون لم أنتم هنا، باستثناء العضو رقم عشرة والذى كنا جميعًا بانتظاره".

لم أكن أفهم شيئًا، نظر ناحيتى ويبدو أن معالم وجهى قد أوحت بهذا؛ فقال موجهًا كلامه لى:

-"حسنًا بما أن أحدًا منا لا يعرف اسمك، وأنت أيضًا لا تذكر اسمك فليكن لقبك بيننا هو العضو رقم عشرة، هكذا سنناديك، سأختصر عليك الحكاية، كل منا قد خضع لهذا الاختبار اللعين الذى خضعت له أنت، وكل واحد منا وجد نفسه ملقى على الرصيف كما وجدت أنت نفسك، وفى جيب معطفه عين التقرير بما حوى، كل منا لا يذكر اسمه ولا مكان سكنه ولا حياته فيما مضى، وأخيرًا كل منا بطاقته خاوية كبطاقتك تمامًا".

كنت أستمع لهذا الذى يقول وفمى فاغر ونفسى مضطربة وعقلى مصاب ببلاهة فلا يفقه شيئًا مما يقال.

توقف الرجل قليلًا وكأنه يرى تأثير ما قال على وجهى ثم أردف:

-"أنا كنت العضو رقم واحد فى هذه المجموعة، حدث هذا منذ عام تقريبًا، كنت تائهًا حائرًا مثلك، ولا أذكر ما الذى جعلنى أذهب إلى هناك، توجهت إلى نفس المكان الذى كنت أنت فيه وكان طابور طويل أمامى، أجرينا كلنا نفس الاختبار الذى جرى عليك، وانتهى بى الأمر ملقى على الرصيف جائعًا تائهًا لا أذكر أى شىء، بعد أن قطعت المدينة طولًا وعرضًا وتوجهت إلى أكثر من مشفى وقسم شرطة أروى ما حدث، لكن لا شىء، الجميع ظن أننى مجنون وهكذا ظننت بنفسى أيضًا، وبالنسبة لفكرة العودة إلى تلك البناية فإن عليها حراسة ليست بالهينة ولا يسمحون لأحد بالدخول على الإطلاق لأى سبب كان، حاولت التسلل لكنى سقطت من أعلى وكدت أن أكسر عنقى".

توقف يلتقط أنفاسه وبدا متأثرًا بما يروى:

"كنت أقضى ليلتى فى الطرقات، فلم أكن أذكر أين عنوان بيتى وعائلتى، هذا إن كانت لى عائلة أصلاً، المهم أننى فى النهاية قررت أن أبحث عن أى عمل مؤقت لأجد مكان أقطن فيه ولو كان كتلك الشقة البائسة، وبالفعل، أنا أعمل حاليًا فى تلك الحانة التى رأيتنى فيها، لكن عملى نهارى فقط فى التنظيف وخلافه، وأسكن هنا حاليًا".

تساءلت مشيرًا إلى السادة الجالسون على الطاولة:

-"وماذا عنهم؟

-"لكل منا قصة مشابهة تمامًا، العضو رقم اثنين"، وأشار إلى رجل ممتلئ قليلًا، أبيض البشرة، أحمر الخدين، يبدو ودودًا ومذعورًا بلا سبب،"كان

ثانى من يصيبه هذا الهراء، وعندما رآه الناس تائهًا فى الطرقات، يسأل نفس الأسئلة التى كنت أسألها، ويعانى مما كنت أعانى منه، ظن الناس إننى أعرفه، وكان لقاؤنا مروعًا فى ذلك اليوم، وتوالى الأعضاء كل فترة نجد رجلًا تائهًا ونضمه إلينا، وهكذا فنحن عشرة أشخاص تائهون تمامًا، بلا هوية، بلا ماض، بلا نقود، بلا أى شىء، بالطبع أنت تعتقد أننا قد توصلنا إلى تفسير ما، ولم نحن بالذات من جرى معنا هذا".

-"نعم، بعد كل ما حكيت لا بد من تفسير، لا أعتقد أنك قضيت عامًا كاملًا دون أن تبحث عن تفسير، لكنت قد جننت لو كنت مكانك".

هنا تكلم عضو آخر من الجلوس، كان أربعينيًا، جاد الملامح صارم بعض الشىء، جلس واضعًا ساقًا فوق ساق:

-"نحن قررنا أن نتتبع عدد من أولئك الذين يخضعون للاختبار، أولئك الذين يدخلون ويخرجون بلا أى غبار عليهم، وبالفعل تتبعنا عدد منهم لأننا كنا نريد أن نعرف نتيجة الكشف والاختبار الذى خضعوا له، ربما نحصل على خيط يدلنا على أمرٍ ما".

هنا أكمل رفيقى العجوز:

-"تتبعنا ما يقرب من ثلاثة وعشرين رجلًا تقريبًا، ممن دخلوا وخرجوا سالمين، اضطررنا أحيانًا أن نتصارع مع عدد منهم، نلكمه حتى يغشى عليه ثم نبحث عن التقرير الذى يحمله، وكانت جميع التقارير مختلفة، بعضهم كان رجلًا سويًا وجاء التقرير بهذا وكتب فيه أن ما يفيد أن حاملوها هم أشخاص رائعون بحق وأنهم مفيدون للمجتمع بشكل استثنائى، وأنهم

مثالًا وقدوة لغيرهم فى سلوكهم وأفكارهم وأخلاقهم، وأنهم عليهم ألا يغيروا من أنفسهم قيد أنملة وأن يستمروا فيما يفعلون بلا أدنى تفكير أو تأنيب ضمير، والبعض الآخر كانت نفسه السيئة تطغى عليه؛ فكان التقرير يأتى بأن حامل التقرير عليه أن ينتبه لما يفعله أكثر من هذا، وأنه يفسد الكثير من الأمور بنفسه التى تجنح إلى الشر والسوء أحيانًا، يشرح كيف يقاوم الجانب السىء فى نفسه، وكيف يشد من عضد جانبه الخير".

تساءلت مترقبًا:

-"ولم لم يحدث هذا معنا نحن؟ أى الرجال نحن؟"

صمت قليلًا قبل أن يجيب:

-"هذا ما لا نعرف إجابته حقًا".

أخذت أفكر فى كل هذا، لم ذهبت إلى هذا الاختبار من الأساس؟ أعتصر ذهنى اعتصارًا، هل كنت متزوج؟ ماذا كنت أعمل؟ لا شىء، لا شىء على الإطلاق، كان هذا مؤلمًا ومرهقًا، وفطنت إلى أننى ربما سأرهق عقلى بلا طائل.

-"حسنًا، ما خطتكم بالضبط؟ أحدكم قال إنكم كنتم بانتظار العضو رقم عشرة، لم أنا بالذات؟ وتنتظرونى لتقوموا بماذا؟"

قال العجوز:

-"سنتقتحم المكان ونبحث عن هوياتنا بالداخل، وندمر المكان قبل أن نرحل، لا مزيد من تلك الاختبارات الحقيرة، وبالإرشاة لسؤالك الثانى،

فنحن بالطبع لم نكن ننتظرك أنت بالذات، لكننا كنا قد اتفقنا منذ أشهر أننا لن نأخذ هذه الخطوة-أى اقتحام البناية- إلا بعد أن يكون عددنا مناسبًا، واتفقنا أن العدد لا يجب أن يقل عن عشرة أشخاص".

-"وكيف سنقتحم المكان؟"

أشار إلى صندوق خشبى مغلق فى زاوية الغرفة لم ألحظه من قبل، وقال:

-"نحن معنا سلاح".

-"تبًا!"

-"لا تقلق، سنحمله للتهديد فقط، هم موظفون وبعض رجال أمن، رجال الأمن مسلحون فعلًا لكن لا أعتقد أنهم سيستعملون السلاح، أو أننا سنباغتهم فنتجنب المواجهة النارية، هكذا نأمل، وعلى كلٍ نحن تائهون وضائعون فلا شىء لنخسره".

-"حسنًا، ما البديل؟ هل لدينا خيارات أخرى؟"

-"نحن لا نملك بديلًا فهل لديك أنت؟"

صمت مفكرًا فى كل هذا ولم أدر بما يجب أن أجيب.

بعد دقائق من الصمت الثقيل تساءلت:

-"متى تنوون التحرك؟"

-"بعد الواحدة صباحًا".

-"الليلة؟"

-"نعم، أمامك خمس ساعات، نل قسطًا من النوم".

أجبته متوترًا:

-"حسنًا، حسنًا".

لا أذكر بالطبع إن كنت قد استخدمت سلاحًا من قبل أم لا، لكن ملمس المسدس بدا لى مألوفًا بعض الشىء،

على كلٍ بدأنا بالتحرك بمجرد أن سكن الشارع تمامًا وخلد الجميع إلى النوم، كان منظرنا يثير الريبة بالتأكيد، عشرة رجال بمعاطف سوداء ومسلحون، بالتأكيد ليسوا فى نزهة، اقتربنا من المكان، له بوابة حديدية صدئة لكنها كبيرة، تصل إليها فى نهاية شارع جانبى ضيق ومنها تهبط درج قذر حتى تصل إلى تلك الممرات تحت الأرض.

لم يستغرق تحطيم القفل الحديدى سوى دقائق ولم يتطلب منا الرجل الواقف مجهودًا سوى ضربة على مؤخرة رأسه، هبطنا الدرج فإذا برجلين شديدين ومعهما كلبان، لم يتردد الرجال فى إطلاق النار مباشرة وكان هذا مفاجئًا لنا، فدوت خمسة طلقات لا بد أنها قد أيقظت الشارع بأكمله، وتوالت بعدها طلقات عديدة وصراخ، وختمت الطلقات بنباح أشبه بأنين كلب يحتضر.

دلفنا من الباب وأخذنا نهرول فى الممرات القذرة، بدأت استرجع ذلك اليوم المشؤوم، حسنًا يبدو أن هناك مزيد من الحرس، ومزيد من الطلقات المتبادلة هذه المرة، سقط رجل منا، فوجئت بنفسى أعبئ السلاح وأصوب ناحية الحراس، أسقطت أحدهم بالفعل.

بعد دقائق هدأ المكان فجأة، أسقطناهم كلهم، صرخ أحدنا، هيا تحركوا، أسرعوا لا بد أن الشرطة قد نما الخبر إليها، وصلنا إلى نهاية الممر، حطمنا

الباب بأكمله، صعدنا الدرج، المكان مظلم هنا، معنا كشافات لحسن الحظ، تلك كانت مع الحراس.

غرفة الكشف ها هى، حطمنا الباب بطلقتى رصاص.

-"فتشوا، فتشوا كل شىء".

-"سأبدأ بسكب البنزين حالما تنتهوا".

-"سنحيل هذا المكان اللعين إلى جحيم".

-"هناك ملفات كثيرة عليها أسماء أشخاص وصورهم".

-"خذ كل شىء معك، لا تتركوا ورقة".

دقائق عصيبة تمر، البحث مستمر، ورائحة الوقود صارت تزكم الأنوف.

-"حسنًا، هذا كل شىء فيما يبدو".

-"فلتفتش هذه الغرفة".

-"تبدو للمدير أو ما شابه".

-"هيا، أسرعوا".

نسمع دوى سيارات شرطة بعيدة لكنها تقترب.

-"هلا انتهيتم بسرعة!"

-"هيا، هيا، هيا".

نجرى مذعورين نزولًا على الدرج، الحقائب معنا محملة بأوراق كثيرة، نرى ضوء النيران يكاد يعمى أبصارنا، المكان صار جهنم، نسرع إلى الخارج، وصلنا إلى الممر، اثنان منا يسيران مستندين إلى غيرهما، قد أصيبا بالتأكيد.

حين صرنا فى الطريق كانت سيارات الشرطة قد اقتربت كثيرًا، هرولنا بما فينا من أنفاس متبقية إلى الشوارع الجانبية، وبعد دقائق كنا فى الشقة، نلتقط أنفاسنا، سقطت على الأرض، كنت مرهق بشدة وأشعر أننى فى حاجة ماسة لأن يغشى على.

بعد دقائق من الهدوء المتوتر قررنا أن نبدأ بالبحث فى هذا الكنز من الأوراق التى حصلنا عليها، لم يتطلب الأمر الكثير من الجهد، فكل فرد خضع لهذا الاختبار كان له ملف عن حالته، استطاع كل واحد منا أن يحصل على تقريره الخاص به، فالصورة حمدًا لله كانت موجودة على غلاف كل تقرير، لكن لم تكن هناك أية بيانات للأسف، تبًا! كان هذا مؤسفًا حقًا، لا عنوان ولا اسم ولا أى شىء، فقط مجموعة أوراق بها رموز غريبة، وصور مختلفة لمقاطع بالمخ وخلافه، وفى النهاية ورقة بيضاء كتب أعلاها التقرير النهائى، وكانت تقاريرنا متشابهة إلى حد كبير، وقد جاء فيها ما يلى:

"صاحب التقرير هو قنبلة موقوتة، مصاب بصراع ذهنى ونفسى عصيب، من الممكن أن يكون رقيقًا كفراشة، أو سفاحًا كقاتلٍ محترف، يمكنه أن يداعب رضيع بلطف، وبإمكانه أن يقتل فتاة صغيرة بيد ثابتة لا ترتجف، حامل هذا التقرير هو مجنون، هو مجرم محتمل، هو خطر مستمر.

إن الأفكار التى تواردت بذهنه والتى استطعنا الولوج إليها ورؤيتها بوضوح كانت أفكار رهيبة مروعة، والصراع الذى لاح فى نفسه وذهنه لهو صراع

كان حقيق به أن يصاحبه عذاب هائل وصراخ ألم مستميت.
حامل التقرير هو خطر على نفسه وعلى المجتمع، وبما أنه لا توجد طريقة أو سبب لإيداعه السجن لتجنب خطره، وحتى إن أودع السجن فوجوده فى مكان كهذا كفيل بتغليب الصراع ناحية السواد فى داخله، كفيل بنضوج الكائن الأسود الكامن فى نفسه، لذا فإن الطريقة المثلى لذلك هى التلاعب بالفصين الصدغى والجبهى فى مخه وإفقاده الذاكرة تمامًا وإلى الأبد، والغرض من هذا أن يتوقف هذا الصراع فى نفسه فلا يولد هذا الوحش القاتم الذى بدا لنا على الشاشة أثناء الاختبار، فلنجعله بلا ماضٍ كما ولدته أمه، ولتتشكل انطباعاته وأفكاره من جديد، وليمض السنوات تائهًا ذاهلًا، ولن يكون بإمكانه العودة إلى ما كان عليه مجددًا.
وبالطبع يظل هذا التقرير طى كتمان الهيئة، ولا يخرج له سوى تقرير مبهم عن حالته، تقرير يزيد من بلبلته ويقنعه أنه لا مفر من البدء من جديد، وسواء بدأ أم لا، فإن خطره قد زال، وهذا الوحش قد تم إخماده إلى الأبد».
تم تنفيذ ما ورد بالتقرير بناءً على موافقة وزارة العدل، وترشيحات لجنة الأطباء النفسيين ومُحللى علم الجريمة التابعة للوزارة.
كانت التقارير كلها متشابهة، اختلاف بسيط فى بعض الأوصاف لكن النتيجة واحدة، نحن مجرمو حرب فيما يبدو، أمسك كل منا بتقريره، قرأه أكثر من مرة، وأعاد قراءته مرة بعد مرة، أصابنا الوجوم، وخيم الصمت المكان، صوت سيارات الشرطة لا زال يدوى من بعيد، نفث أكثر من

واحد سيجارته بتوتر شديد، لم نكن نعلم ماذا علينا أن نقول، وهل هناك ما يقال بعد ما قرأناه للتو؟!

خرق العجوز الصمت المقدس بصوته الرخيم:

-"لن أرتاح حتى أقتل كل القائمين على هذه الهيئة اللعينة!"

نظرنا له جميعًا متأملين لكن أحدًا لم يجب.

-"لو توجهنا إلى الشرطة بتلك التقارير نتهمهم بالقيام بما ليس لهم الحق فيه لزجوا بنا فى السجن؛ بسبب تلك التقارير اللعينة، وقبلها بالتأكيد لأننا اقتحمنا المكان وأردينا تقريبًا ستة حراس أو أكثر.

لكننى سأتحدث عن نفسى، أنا ضائع فى جميع الأحوال، وتلك الهيئة هى سبب ضياعى، لم يعد لدى شىء لأخسره، إن كانوا يخشون الوحش القامع داخلى، فسأريهم ما هو ألعن وأضل، إن كانوا يرون إننى قنبلة موقوتة فسأثبت لهم أن تلك القنبلة ما زالت تعمل، وأن كل ما فعلوه هو أنهم قد أشعلوا فتيلها".

ظللنا نستمع له وهو ينطق الكلمات فى حنق ضاغطًا على أسنانه بقوة، صوته وهيئته وكلماته أعطت له هيبة فوق هيبته جعلتنا ننصت لما يقول وربما نقتنع أيضًا.

"نحن الآن فارون من العدالة يا رجال، لكننا مظلومون قبل هذا، والظلم الذى وقع علينا هو ظلم فادح، فهؤلاء السادة قد سلبونا ماضينا بل مستقبلنا لتخاريف أوردوها بتقريرٍ أبله، لذا أنا لا أنوى البقاء هنا هكذا للأبد، لا أدرى ما رأيكم يا سادة لكنى لن أترك موظفًا ولا طبيبًا فى هذا

المكان اللعين إلا وسأرسله إلى ربه".

وانتهى الاجتماع المريب بعشرة رجال يراجعون ما لديهم من سلاح، يراجعون الأوراق التى حصلوا عليها من المكاتب بالداخل، يتعرفون على أسماء الأطباء، رئيس الهيئة، نائبه، مساعده، يعدون قائمة بأسماء هؤلاء، يقترح أحدهم أن يرتدوا أقنعة حتى إذا ما انتهوا من تلك القائمة فى سلام أمكنهم أن يواصلوا حياتهم خارج السجن، لم يعد هناك مزيد من الصراع، لم يعد من حاجة لمزيد من التفكير، لا كفة ستغلب على الأخرى الآن، لا جانب أقوى من جانب هنا، الطريق واحد، والقرار نهائى، والنتيجة حتمية، الوحش الكامن بالداخل قد قرر الخروج، وهو يبدو متحمسًا، فليبدأ المرح إذًا.

البداية.

شروخ

كان(ك) يشعر أنه سيسمع بهذا الخبر قريبًا، مهما تأجل الإعلان عن الأمر كان واضحًا للعيان أنه سيحدث، فى ذلك اليوم كان جالسًا كعادته خلف شاشة حاسوبه ينهى بعض المعاملات بمئات الملايين لصالح الشركة حين دخلت عليه زميلته الحسناء، والتى كان المكتب بل الشركة كلها تعلم أن سمعتها ليست طيبة ويشوبها بعض اللغط، ربما لملابسها العجيبة وكأنك جالس معها فى سهرة حفل راقص، أو ربما لتبسطها بصورة مقلقة فى الحقيقة مع زملائها الشبان، فى الواقع هى كانت تقترب منك كثيرًا حين تحدثك، تقترب إلى حد أنك تشعر بالحرج فتبتعد خطوات للخلف. لم تطرق الباب بل اقتحمت المكتب عليه فجأة، عطرها الفاغم أغرق

المكان فى ثوانٍ، كانت ترتدى جونلة رمادية ضيقة وقصيرة، اتخذت من مكتبه مجلسًا لها، قفزت فوقه فى رشاقة، وضعت ساقًا فوق ساقٍ، كانت تلوك علكة بدلال كعادتها، وتنظر له نظرة هو لا يريد أن يفسرها، ظل منتظرًا أن تبدأ الحديث فلم تفعل فبدأ هو:

-"ما الأمر؟"

-"تحققت تنبؤاتك".

لم يستطع أن يخمن عم تتحدث.

-"ماذا تقصدين؟"

-"المدير، سيتم تكريمه من الهيئة وسيحصل على علاوة ضخمة، وستضاف عدة ألقاب أخرى قبل اسمه".

ابتسم فى فخر:

-"ههه ألم أخبركم! كان الأمر واضحًا للعيان".

اقتربت قليلًا منه وقالت فى ميوعة واضحة احمر لها وجهه:

-"حسنًا سنذهب سويًا لحفل التكريم، فندق فاخر وحفل رقص وربما شرب حتى الصباح".

-"كفاكِ هراءً، هذا حفل تكريم للهيئة، لن تجدى أى من هذا العبث هناك!"

-"حسنًا فلنذهب إلى مكان آخر، مكان نجد فيه هذا العبث".

كان هذا تجاوزًا غير مألوف فى العلاقة، كان على وشك أن يفقد أعصابه ويوجه لها توبيخًا، فهى تعلم أنه قد تمت خطبته على زميلته فى قسم

التطوير فى الشركة، فما الداعى لهذا العرض المثير أمامه.

-"أرجوكِ، لو دخلت خطيبتى الآن لكان من الصعب تفسير المشهد، ألا تعتقدين هذا؟"

نظرت له وتعبير غباء يعلو وجهها وغمغمت منسحبة من أمامه:

-"لا بل أعتقد إنك معقد وتفهم الأمور بشكل خاطئ، وداعًا".

لم يدر بما عليه أن يجيب، كانت قد غادرت المكتب بالفعل وصكت الباب خلفها.

بعد ثلاث ساعات من العمل المتواصل خرج إلى البوفيه يحتسى بعض الشاى ويريح ساقيه من الجلوس وعيناه من مواصلة التدقيق فى الأوراق والأرقام، لما دخل المكان وجدها واقفة تتبادل حديثًا باسمًا مع زميل لها، كان يناولها شيئًا ما لتأكله وهى تشكره، اقترب منهما فبدت المفاجأة على وجهيهما.

-"مرحبًا".

-"أهلًا(ك)".

ابتسم من كان برفقتها له وانسحب.

-"هل عرفت بأمر تكريم المدير؟"

-"نعم، كان الأمر متوقعًا على أية حال".

كان مزاجه قد تعكر بعض الشىء وقد لاحظت هى ذلك.

-"ماذا بك؟"

-"لا شىء، أنا بخير".

-"لا تبدو لى بخير".

-"فقط مرهق، ولدى الكثير لأنهيه".

-"هلا نذهب للحفل سويًا".

-"بالتأكيد، متى هو؟"

-"بعد غدٍ الخميس".

-"حسنًا، سأصطحبك ونذهب معًا".

صمتا لثوانٍ، هو ينظر خلفها إلى لا شىء، وهى تراقبه ولا تفهم ما به.

-(ك).

-"نعم".

-"أنت واثق أنه لا شىء يزعجك؟!"

شعر بارتياح بعض الشىء، كان مجرد أن تشعر هى أنه ليس على ما يرام، بدون أن يخبرها هو، شيئًا يعطيه إحساسًا بأنها تهتم لأمره، كانت الفتاة رائعة، جمالها هادئ ولا يلاحظه الكثير، وكانت ودودة وذكية، والأهم متواضعة مع الجميع، كان هذا ضروريًا بالنسبة له، الغرور كان كارثة لو وجده فيمن أمامه،

ابتسم لها بأسارير قد انفرجت للتو.

-"لا شىء صغيرتى، لا شىء، سأذهب الآن، أراكِ لاحقًا".

طبع قبلة سريعة على خدها ابتسمت على أثرها ومضى يصب لنفسه كوبًا من القهوة ثم غادر البوفيه متجهًا إلى مكتبه.

*****

فى الحفل كان الجميع حاضرًا، من وجهت له الدعوة ومن لم يكن له نصيب من هذا الاهتمام، كان هو ممن وجهت لهم الدعوة لأنه يعتبر من أهم المحاسبين فى الشركة ولا أحد بإمكانه أن ينكر فضله وكم من النفقات قد وفر أكثر من مرة على الشركة، برفقة خطيبته التى ارتدت فستانًا أزرق اللون بدت تتبختر فيه رائعة، لما رآها ظل يحملق فيها فترة طالت بعض الشىء، شعر بالقلق حيال امتلاكه كل هذا القدر من الروعة والجمال.

-"تبدين رائعة!"

ابتسمت قائلة:

-"أعرف هذا".

قهقه قائلًا:

-"مغرورة".

-"وجميلة، مغرورة وجميلة".

اتخذا مكانهما فى الصف الثالث، كان الأمر مبالغًا فيه بعض الشىء، بل كثير من الشىء، الفندق كان يحمل علامة عالمية تتبعها خمسة نجوم، والقاعة كانت تزدان بكل ما هو لامع ومبهر ومبالغ فيه، السادة من الهيئة تفاخر كل منهم بسيارته التى أوقفها فى جراج الفندق، وببدلته التى يعادل ثمنها مرتبه-وهو ليس بالقليل- لأربعة أشهر ربما يزيد، كان يعلم أن أغلب السادة الحضور هم بالأساس لصوص، وهم يعلمون أنهم لصوص، والهيئة والشركة يديرها لصوص، لكن لا بأس، طالما الجميع

راضٍ، الجميع سعيد، إذًا لا بأس،
لم يكن الرجال فقط هم من رأوا أن الحفل فرصة لا تتكرر للتباهى بل وزوجاتهم أيضًا، فساتين سهرة جاءت من الخارج، مطرزة ومطعمة بأشياء لامعة عجيبة، أغلبها تكشف أضعاف ما تستر، كانت كل تلك الأجواء تخنقه، الكل راضٍ عن نفسه، الكل يتملق، الكل يبتسم فى بلاهة وكلمات المجاملة المحفوظة تتردد على الألسنة.
ما أزعجه حقًا كان انبهار خطيبته بكل هذا الهيلمان، لا يدرى أهو انبهار عن حب للمظاهر ورغبة فى التكلف أم إنه فقط من الطبيعى أن تنبهر حين ترى ما يبهرك.
كان المنظمون قد اعتلوا المنصة وقد أنهوا للتو استعدادهم لبدء الحفل، المدير ونائبه وحاشيته، رئيس الهيئة ونائبه وحاشيته احتلوا الصف الأول والثانى بأكملهما، فجأة تم تخفيض شدة الإضاءة على المقاعد وتركزت على المنصة، خرج أحد المحترمين ببدلته وقف خلف المايك، ألقى بعض الكلمات السخيفة عن العمل والتفانى وروح الفريق، وأن النجاح يأتى ببطء لكنه يأتى، وجه مديحًا لرئيس الهيئة وشكرًا لمدير الشركة وثناءً على رئيس الدولة، وهراء من هذا القبيل.
بدأ يعلن عن سبب تكريم المدير، وأعلن عن الكلمة المنتظرة بعد ملل أصابه وضجر لم يحاول إخفاءه حتى أنها أخبرته إن عليه أن يحاول أن يبدو أكثر سعادة.
أخيرًا انتهى الجزء السخيف من الحفل، تم تسليمه الدرع الذهبى، التقطوا

مئات الصور، أسنانهم بدت بيضاء واضحة؛ فالابتسامات كانت عريضة حقًا، التقط معهم بعض الصور وخطيبته محاولًا أن يجعل ابتسامته مقنعة. أعادوا الإضاءة للمكان مجددًا وغرق الجميع فى أحاديث ثنائية ورباعية، واختلطت أصوات الثرثرة مع ضحكات خفيضة بعضها قهقهات عالية من حين لآخر، أصوات الملاعق على الأطباق، ونهايات الكؤوس ترتطم ببعضها البعض، الكل يأكل، الكل يثرثر، الكل سعيد، حسنًا حان وقت الرحيل ربما، التفت يبحث عن خطيبته كانت برفقة زميلاتها فى القسم، وجدها لكن فى الواقع لم تكن مع رفيقاتها، بل كانت واقفة مع نفس الشخص فى بوفيه الشركة، نفس وضعيهما، نفس المسافة تفصل بينهما، نفس الابتسامة تعلو وجهيهما، لم يكن هذا جيدًا، قرر ألا يتجه إليهما، دعها فى عماها، ربما هو يبالغ؟ لا يدرى حقًا، علاقتهما بدأت منذ سنة تقريبًا، لم يبد عليها أى شىء سوى منذ أشهر، هل هذا حقيقى أم إنه يتخيل، حقًا كان التفكير فى هذا الأمر يخنقه.

ظل واقفًا بلا رفيق لدقائق حتى لاح المدير ورئيس الهيئة فجأة، كلٌ متأبط ذراع الآخر يقهقهان، وفى يد المدير الدرع الذهبى الذى كان يبدو فخمًا حقًا وكأنها جائزة الأوسكار أو أفضل لاعب.

-"هاى(ك)، لم أنت واقف وحدك؟"، قال المدير.

-"هه لا سيدى فقط أبحث عن شخص ما، مبارك الدرع".

رفع الدرع يريه إياه فى فخر وكأنه طفل يعرض لعبة اشتراها أبوه له للتو:

-"انظر، ما رأيك؟ لامعة أليس كذلك؟"

تناولها من يده، كانت ثقيلة حقًا، عبارة عن لوحة حفر عليها نص التكريم وخلفها ما يشبه مجسم ذهبى بتصميم ذكى يجمع شعار الهيئة ولوجو الشركة، أخذ يقلبها فى يده مبديًا إعجابه، لكنه لاحظ شيئًا غريبًا وهو يتفحصها، خطًا غائرًا يبدأ من أول قاعدة اللوحة حتى نهايتها، شرخ فيما يبدو، وكأن اللوحة مشقوقة بالكامل، أخذ يتحسس بإصبعه مكان الشرخ لكن لا شىء، لم يشعر بشىء، لاحظ المدير ورئيس الهيئة فسأله المدير ملهوفًا:

-"ما الأمر؟"

-"لا أدرى، هل هذا شرخ أم ماذا؟"

ناوله الدرع فأخذ ورئيس الهيئة يقلبانه، ثم نظرا له تعجبًا، أشار لهما إلى مكان الشرخ الذى يراه، كان واضحًا جليًا، ليس بسبب خطأ فى إضاءة أو شىء من هذا القبيل:

-"ها هو سيدى، ألا تراه؟"

-"هل هذه مزحة جديدة أم ماذا؟"

بدا الامتعاض على وجهيهما.

-"سيدى أنا لا أمزح فعلًا، هناك شىء ما خطأ".

-"لا يا(ك)، لا يوجد شىء ما خطأ، ربما أنت مرهق فقط!"

قالها المدير بانزعاج شديد، ربما ظن أن(ك) قد تعمد إغاظته كى يعكر عليه فرحته بالتكريم، تركاه وانصرفا، وظل هو واقفًا كالأبله لا يفهم ما حدث، بعد دقائق رآها مقبلة عليه بثغر باسم ووجه صبوح، فنسى

غضبته عليها، والكلمات التى كان ينوى أن يلومها بها، وإن لم تزل تلك الغصة تمامًا من قلبه، غصة شك بدأ يتولد داخله.
تأبطت ذراعه فى سعادة لم تخفها وغادرا الحفل سويًا.
تركها أمام بوابة بنايتها بعد أن أقلها بسيارته ودعته بقبلة خفيفة وانطلق إلى بيته، كان الطقس رائعًا منذ ساعات، لكن السحب قررت فجأة أنها لا بد أن تجتمع، أضاءت السماء معلنة بدء العاصفة، وبدأت الأمطار خفيفة، ثم أخذت تشتد بسرعة، طرقات المياه تعالى صوتها، والرعد أعلن عن غضبه ولا يزال، أغلق جميع النوافذ وأخذ ينهب الطريق المبتل نهبًا.
لما وصل بيته كانت العاصفة قد بلغت ذروتها، الأشجار الضخمة حول منزله بدت مخيفة وهى تهتز فى الظلام، أولج المفتاح ودلف، أغلق الباب فهدأت أصوات العاصفة فى أذنيه، الهدير بالخارج يدمر الأعصاب تدميرًا، لم يكن به حاجة إلى عشاء، ما تناوله فى الحفل كان كافيًا، أخذ حمامًا دافئًا كان فى حاجة ماسة إليه، فرأسه وصدغاه كانا على وشك التجمد، ورغم شعوره بارتياح عميق إلا أن راحة جسده لم تمنعه من التوقف عن التفكير فى خطيبته وفى سلوكها اليوم وكل يوم، كان كلما حاول أن يصرف تلك الأفكار عن مخيلته تعود من جديد، بصورة أو بأخرى.
ارتدى منامته أغلق الأنوار عدا ضوء خافت أعلى الكومود، جلس على طرف الفراش، كان معتادًا أن يخلع دبلته قبل أن يخلد للنوم، لا يرى تفسيرًا لهذا، هو فقط يفعله.
على الضوء الأرجوانى الباهت، خلع دبلته، كان صرير الرياح ما زال يضرب

بالخارج، بالكاد وضع الدبلة على الكومود وهم بالاستلقاء، حين لاحظ شيئًا ما لا يبدو مألوفًا، منذ متى والدبلة بها هذا النقش الأسود؟ سأل نفسه بلا مجيب بالطبع، تناول الدبلة من جديد، ترك الفراش وبيده الدبلة، أضاء الغرفة من جديد، تبدو مشقوقة أو هى مشقوقة فعلًا، أخذ يتحسس مكان الشرخ لكن لا شىء، تذكر على الفور ما رآه بالحفل، كان هذا غريبًا حقًا، لكنه على أية حال كان مرهقًا، وغير رائق البال للتفكير فى تفسيرات، لم يشغله الأمر كثيرًا أصلًا، أعتم الغرفة مجددًا واندس تحت غطاءه الوثير، متلذذًا بسماع الأمطار والعاصفة بالخارج، طارده وجه خطيبته البسوم عدة مرات، أزعجه تذكر اللقطة التى جمعت بينها وذلك الشاب، أرهقه التفكير، استسلم فى النهاية لجفنيه، وراح فى سبات عميق.

فى صباح اليوم التالى استيقظ على صوت هاتفه النقال يعلن عن وجوده بإصرار، تناول الهاتف وأجاب، كان رقمًا مجهولًا، أجاب فجاءه صوت امرأة تبدو كبيرة فى السن:

-"أستاذ(ك) معى؟"

-"نعم هو أنا، إلى من أتحدث؟"

-"معك الدكتورة"ش"، من دار العاصمة لرعاية المسنين".

-"أهلًا بك، خير، ما الأمر؟"

-"يؤسفنى أن أبلغك أن والدك قد توفى مساء البارحة فى تمام الثالثة بعد منتصف الليل، وقد اتصلنا بك فور وقوع الوفاة لكن لم يجب علينا

أحد".

-"..."

-"خذ وقتك سيد(ك) أنا فعلًا متأسفة، فقط أرجو منك الحضور لإنهاء بعض الأوراق و..."

كان يشعر هو أيضًا أنه متأسف لوقوع الوفاة، فقط يأسف، لا حزينًا ولا سعيدًا بالطبع، فقط هو يأسف، لا يدرى لم كان يزعجه أمر تلك الأوراق التى لا بد أن ينهيها، لثوانٍ شعر بالخجل من نفسه، أهذا ما يشغل باله الآن حقًا؟ حاول أن يقنع نفسه أنه حزين حقًا لوفاة والده، لكن فى قرارة نفسه كان يعلم أنه يشعر بارتياح، ربما لأن والده قد ارتاح من آلام وعذاب شيخوخته، وربما لأنه لم يعد مضطرًا لأن يزوره من وقت لآخر ويتبادل معه بعض الكلمات الجوفاء، وربما السببان معًا.

اقتحم على ذاكرته مشهد ذلك اليوم الذى قرر فيه أن يدع والده فى دار المسنين، خمس سنوات قد مرت تقريبًا، لم يحتج الكثير كى يقنع نفسه إن هذا هو القرار الأصوب، فهو لم يعد قادرًا على رعايته، ومنصبه فى الشركة صار مهمًا وبالتالى مسؤوليات وأعباء أكثر، لن يخاطر بمستقبله المهنى كى يصطحب والده إلى المرحاض عشر مرات كل يوم، اعترضت أمه بشدة على هذا القرار، لكنه لم يستمع لأحد فهددت أنها ستذهب مع زوجها إذا ذهب، لم يفلح التهديد، قال لها فلتذهبى، لا آبه كثيرًا، وبالفعل ذهبا وتركاه مكسوف البال مكسور الخاطر، لم يزورها خلال الخمس سنوات سوى أيام معدودات، أمه لم تمكث سوى سنتين ثم انتقلت للرفيق

الأعلى، وظل أبوه وحيدًا حبيس تلك الغرفة الكئيبة، فى إحدى أدوار دار العاصمة لرعاية المسنين.

اتصل على الفور بمديره يخبره فنال إجازة لثمانية وأربعين ساعة، اتجه إلى الدار، أنهى بعض الأوراق الرسمية، وجد عاملًا ما، ناوله بعض الأوراق المالية حين علم أن بإمكانه أن يرتب أمر الدفن، لن تكون هناك جنازة، فلم يبق أحد على صلة بأحد فى تلك العائلة المشؤومة، بالفعل بعد منتصف النهار بساعة أو يزيد كان قد تم الدفن، تلا عليه بعض التراتيل، وانصرف عائدًا إلى بيته.

لم يفعل شىء يذكر بقية اليوم، فى اليوم التالى استيقظ متأخرًا، فاليوم عطلة، كان قد نسى تمامًا ما جرى بالأمس، وكأن شيئًا لم يكن، بل ربما شعر بامتنان لما جرى، فقد نال يومين عطلة وهذا أمر لا يحدث كثيرًا، طلب رقم خطيبته أكثر من مرة لكنها لم تجب، كان يفكر فى دعوتها للعشاء أو للسينما بالمساء، ظل طوال اليوم يشعر بملل، لا يجد ما يفعله قرر أن يخرج للتريض فالبيت صار خانقًا وكئيبًا.

قرر ألا يتحرك بالسيارة، هو لن يبتعد كثيرًا على أية حال، قبل أن يصل للطريق الرئيسى سمع صوت ضحكات يختلط بصراخ متقطع، كان زقاق جانبى قذر هو مصدر الصوت، لم يحتج للدخول ولا للاقتراب، كان المشهد واضحًا، كانوا أربعة رجال شرطة بلباسهم الرسمى، تحولقوا حول شاب بدا مريبًا، ربما هو لص، كان قد سقط أرضًا يتلوى ألمًا ممسكًا ببطنه وشفتاه تنزفان بشدة، كان رجال الشرطة يتناوبون عليه الركل واللكم والسباب،

شعور بفخر اعتلا الوجوه وسعادة بالغة قد ألمت بهم فى تلك اللحظات، لم يطل النظر ولم يرقه مراقبة المشهد الذى كان كفيلًا بتعكير مزاجه بقية اليوم.

لم يحاول التفكير حتى فيما رأى، بمجرد مروره وابتعاده عن الزقاق، بمجرد تلاشى أصوات الصراخ والضحكات نسى تمامًا ما كان، واصل المسير محكمًا إغلاق سترته دافسًا رأسه بين ياقتى معطفه، كان الهواء بسيطًا لطيفًا لكن باردًا، الشمس لم تظهر منذ الصباح، والشوارع هادئة بالفعل، جلس على إحدى المقاهى بعد أن ابتاع جريدة الصباح، لم يكن يعبأ كثيرًا بهراء الحكومة وما تكتبه الصحف لكن فقط تزجية للوقت. لاحظ أن صفحة الحوادث لم تعد صفحة واحدة، بل صارت تلتهم ثلث الجريدة بأكملها، هل هذا حقيقى أم أن الجريدة تبالغ، لم تكن من تلك الصحف الصفراء التى تفتعل أخبارًا مثيرة لتزيد من مبيعاتها، بل كانت صحيفة عريقة ولها اسمها، تعجب بعض الشىء حتى من عناوين الحوادث الرئيسية وإن لم يكترث حقًا، كان أغلبها قتل واغتصاب، رشاوى وفساد، هل هذا طبيعى أم أن المدينة الصغيرة قد فقدت صوابها مؤخرًا؟

قرر أن يترك المقهى بعد أن انتصف النهار ويعود قافلًا إلى بيته، خطيبته أخبرته إنها ستذهب اليوم مع صديقة لها إلى مصفف الشعر، تمنى حقًا أن تكون صادقة، العلاقة بينهما لم تعد كما كانت منذ أشهر.

حين اقترب من بيته كان هناك صبية يلعبون بالشارع أمام منزله، أكبرهم

لا يتعدى الأربع عشرة سنة، فى البداية ظن أنهم يلهون بكرة أو ما شابه، لكن حين دقق النظر وجده جوال قماشى به شىء ما، شىء ما يتحرك، يتحرك ويئن،"يا إلهى!"، هكذا قال ملهوفًا.

-"ما الذى تفعلون بحق الجحيم؟"، صرخ فيهم.

لم يجبه أحد، فقط رمقوه بنظرات كراهية واحتقار وفروا مبتعدين وهم يتضاحكون، أخذ يحاول تمزيق الجوال فهاله أن رأى جرو صغير، أسود اللون، ينزف من كل جانب، وعظامه تقريبًا كلها قد تهشمت، لم يدر ما عليه أن يفعل،"يا لهؤلاء الشياطين، أى أطفال هم، يا إلهى!"، أخذ يردد لنفسه.

لم يفكر كثيرًا فى حل، فلحسن الحظ كان الجرو قد لفظ أنفاسه الأخيرة بعد دقائق، حمد الله من قلبه، زفر زفرة ارتياح وقام بدفنه كيفما اتفق فى حديقة مهجورة خلف منزل قديم.

كان هذا المشهد حقًا هو ما عكر عليه مزاجه تمامًا، وأفسد عليه أية فرصة لعمل أى شىء طوال اليوم، وهو لم يكن لديه أية مشاريع على أية حال، لذا لم يفعل سوى أنه تناول طعامه، اطمئن على خطيبته فى نهاية اليوم، وارتمى على فراشه مجهدًا من لا شىء.

فى صباح اليوم التالى كان ينتظره الكثير من الأوراق والدوسيهات لينهيها، فيومين عطلة يعنى جبل من العقود والحسابات، تمترس خلف مكتبه يعمل بهمة طاردًا كل الأفكار من رأسه، خلف شاشة الحاسوب، وضمن بقية المتعلقات والتحف الرخيصة على مكتبه كانت صورة صغيرة فى

حجم كف اليد، صورة قديمة وضعت فى برواز بسيط منذ ثمانية أعوام تقريبًا، كانت الصورة هنا دائمًا، منذ تولى العمل فى الشركة، وانتقلت معه من مكتب لمكتب ومن ترقية لأخرى، لم تلفت انتباهه قط، فهى باهتة ومملة، كان هو يقف فى المنتصف بوجه حليق وابتسامة بلهاء، خلفه يقف والداه، كانا يبدوان صغيرين حقًا، وكأن الصورة التقطت منذ عشرين عامًا، كانا يبدوان فخورين وسعيدين، لا يدرى لم لفتت انتباهه فجأة وهو فى خضم الأوراق وغارق لأذنيه فى الحسابات والأرقام، هل حن إليهما؟ هل شعر بتأنيب ضمير لسبب ما؟ لا هذا ولا ذاك، كل ما فى الأمر أنه لاحظ شيئًا ما عجيبًا فى الصورة، خطًا أسود عريض فى أجزاء ورفيع فى أجزاء أخرى، خط يبدأ بأسفل الصورة وينتهى بأعلاها، خط يبدو وكأنه شق طولى، شرخ ما، لكن أى صورة تلك التى تصاب بشرخ؟ ما هذا الهراء؟

تناول الإطار بسرعة وتحسس موطن الشرخ لا شىء، حاول أن يفككه برفق ليخرج الصورة فلم يستطع، طالت محاولاته ولم يطق صبرًا، كسر الزجاج فجرحت يداه، لم يعبأ كثيرًا، أخرج الصورة أخيرًا، الشرخ يبدو عليها واضحًا، يمر مائلًا من خلال أمه ثم هو وأبيه فى الأخير، تبًا ما الذى يجرى، تذكر أمر دبلته فخلعها على الفور، كانت الدماء من يده قد لوثت كل شىء، والخط الأحمر الكثيف ينساب ولا يتوقف

نظر إلى الدبلة فكان الشرخ واضحًا لا لبس فيه، وهنا خطرت فكرة بباله، خرج من المكتب مسرعًا بعد أن وضع الصورة فى جيب سترته

الداخلى، اتجه إلى الحمام، غسل يده تاركًا الدماء تسيل حتى احمرت المياه فى الحوض، كان يريد أن يرى ذلك الدرع مجددًا، ما تلك الشروخ اللعينة، وما الذى يجرى له مؤخرًا، استرجع فى لحظات ما يجرى مع خطيبته وما جرى لأبيه، مشهد رجال الشرطة وأنين الجرو الصغير، والأخبار السوداء فى الصحف، شيئًا ما غير مريح على الإطلاق يجرى، ولا يدرى كنهه.

اتجه إلى مكتب المدير، كانت أعصابه على وشك الانفلات، بدا عصبيًا بعض الشىء، لم يطرق الباب بل اقتحم عليه المكتب فجأة، كان لديه زائرون فيما يبدو، انزعج المدير بشدة من هذا التصرف الأخرق فوبخه بمجرد رؤيته:

-"(ك) ما الذى تفعله؟"

-"عذرًا سيدى، هناك أمر عاجل".

-"لا شىء الآن عاجل سيد(ك)، والآن هلا تركتنا؛ فلدى ضيوف كما ترى!"

لم يبد أن(ك) يستمع لما يقول المدير، فقط استدار باحثًا بين الأوسمة والنياشين المعلقة فى دولاب المكتب على الدرع، حتى إنه وجه سؤالًا لا ينتظر له جواب: "أين الدرع؟ أين وضعته؟"، كل هذا وسط نظرات الدهشة والغضب، دهشة الضيوف وغضب المدير الذى وصل الغضب به أقصاه، حتى إنه صرخ فيه أن يخرج الآن، لكن(ك) لم يبد إنه يسمع أى مما يقال، شعر المدير إنه لا بد له أن يستأذن الضيوف أن يغادروا المكتب مؤقتًا.

-"عذرًا يا سادة، يبدو أن هناك أمرًا ما خطيرًا، أستمحيكم عذرًا أن تنتظرونى بالخارج لخمس دقائق فقط".
خرج الضيوف واحدًا تلو الآخر وما أن أغلق آخرهم الباب حتى قفز المدير من مقعده رغم كرشه الضخم وأوداجه المنتفخة، أمسك(ك) الذى كان لا يزال يواصل البحث بطريقة مريبة فى الحقيقة وكأنه مجنون من كتفه صارخًا لكن محاولًا أن يخفض صوته:
-"ما الذى تفعله بحق الجحيم؟"
-"أين الدرع؟ درع التكريم".
-"(ك) هل جننت تمامًا؟ ما قصة الدرع تلك؟ هل وفاة والدك أثرت عليك؟!"
-"سيدى أنا بخير، فقط أرنى الدرع بالله عليك".
-"لا يا(ك) أنت لست بخير، منذ يوم الحفل وأنت لست بخير، حتى زملائك قد لاحظوا هذا، الآنسة خطيبتك وزميلها فى قسم التطوير، الناس فى الحفل بعضهم حدثنى عن نظراتك باحتقار لهم أثناء التكريم".
-"اسمع سيدى..."
-"لا يا(ك) استمع أنت إلىّ، إذا كان الحقد قد ملأ قلبك تجاهى فأنا لن أسمح أن يتأثر سير العمل بهرائك وأفكارك السلبية، عد كما كنت وإلا ستترك مكانك عما قريب".
كاد(ك) الذى وقف مبهوتًا متعجبًا من الهراء الذى يسمعه أن يجيب لكنه لمح الدرع فى خزانة صغيرة بواجهة زجاجية خلف المكتب فأخرسته

تلك اللحظة، اتجه ناحية الخزانة وأخرج الدرع، أما المدير فقد ظل واقفًا فى مكانه بلا حراك ولا تعبير على وجهه.

تفحص(ك) الدرع فرأى للتو عين الشرخ الذى رآه أول مرة بل ربما قد ازداد، أطرق لثوانٍ، أعاده مكانه برفق، وبدا أكثر تشتتًا وحيرة مما كان عليه، بدا وكأنه تعرض لصفعة قوية، لصدمة شديدة أفقدته القدرة على التفكير وشلت عقله تمامًا، هنا نطق المدير وقد تيقن أن(ك) مريض لا ريب.

قال له بلين واضح فى نبرته:

-"حسنًا(ك) سأمنحك أجازة لأربعة أيام، تُرح فيهم ذهنك وتطرد هذا الهراء من لبك".

لم يجب(ك) بل جلس على أقرب مقعد وظل صامتًا، اتجه المدير إلى مكتبه يكتب ورقة بالأجازة الممنوحة، فى أثناء ذلك نظر له(ك) وهو ما زال على مقعده لم يبارحه فلاحظ شيئًا ما، شىء ما غير طبيعى، غير منطقى، غير واقعى، كان المدير من عادته إذا كتب ورقة أو قرأها انكب عليها مائلًا بجسده إلى الأمام، فكانت قمة رأسه تبدو لمن هو جالس فى مواجهة المكتب، وكان هنا بالضبط يجلس(ك)، كانت قمة رأس المدير تبدو واضحة، لكن بها خطب ما، كانت، كانت مشقوقة، شق طولى واضح بها، ظل(ك) مكانه لا تبدو عليه أية ردة فعل، لكن رأسه بدأ يدور، والمكان من حوله بدأ يترنح، لما أنهى المدير كتابة الورقة، لما رفع رأسه، لما نظر إلى(ك) يناوله الورقة، كان الهول ذاته قد بدأ، ما مضى

كان مزاحًا فيما يبدو، كان وجه المدير مشقوقًا بالكامل، لم يكن المشهد مرعبًا بقدر ما هو مستحيل، شق أسود قبيح مخيف يضرب الجبهة ويمر بين العينين، يمر بالأنف مائلًا وكذلك بشفتيه، ذقنه حتى رقبته، حاول (ك) الوقوف على قدميه، فشل فى البداية لكنه استند إلى الحائط فتمكن أخيرًا، كان الرعب والهول يبدوان على وجهه، تعبيراته توحى بأنه يرى ملك الموت يبتسم له، ارتعد المدير خوفًا من تعبيرات(ك) الذى بدأ يأخذ خطوات للوراء ناحية الباب وعيناه الجاحظتان لا تفارقان وجه المدير.

-"(ك) ما الأمر؟!

-"..."

-"(ك) هل فقد صوابك؟"

خرج من المكتب مرتاعًا، قدماه لينتان تفككت أوصالهما، يداه ترتعشان وجسده كله يرتجف، الأرض تحته تميد، يهرول بل كان يجرى، يتعثر فيقوم من جديد، يده ما زالت تنزف، ملابسه لطخت ببقع دم طازجة، شعره مبعثر وهندامه قد فسد تمامًا، لا يدرى إلى أين يتجه، كان يريد الخروج من الشركة وحسب، فى طريقه للخروج اصطدم بتلك الفتاة، صاحبة الجونلة الرمادية الضيقة، لم يلزمه إلا ثوانى حتى يرى وجهها المشقوق المبتسم، كم كان هذا مرعبًا، أى أعصاب تحتمل، فى الواقع أعصابه كانت على وشك الانهيار تمامًا، لم يتوقف أمامها كثيرًا، أخذ يحاول أن يسرع الخطى إلى الخارج، حسنًا هو الآن فى الشارع، الشمس لم تشرق بعد، كان هذا سيئًا، مضى هائمًا على وجهه، رأسه تكاد تنفجر،

وجه مديره والفتاة الطائشة لا يفارق مخيلته، كان يلهث تعبًا، صدره يعلو ويهبط رعبًا، قدماه خانتاه فقرر الجلوس على أحد الأرصفة، ساندًا ظهره إلى الجدار، دافسًا رأسه بين راحتيه، محاولًا أن يستجمع شتات نفسه، يسيطر على أعصابه التى انفرط عقالها، يفكر بروية وهدوء، لدقيقة ظل هكذا، رفع رأسه، رآها، لم تكن وحدها، ذلك الملعون معها، تشابكت أصابع كفيهما، وتلاصقت الأكتاف، وتعالت الابتسامة، أيتها الحقيرة الكاذبة، سوف تلعنك السماوات والأرض وسيلعنك اللاعنون، أيتها الفاجرة الخبيثة، ما أبرعكن فى التمثيل، فار الدم فى عروقه، قرر أنه سيقتلها، سيهشم عظامها، سيصفعها، سيفعل أى شىء، أى شىء، لكنه لن يظل واقفًا هكذا مكانه، كانا يعبران الطريق باتجاهه، حين قام من جلسته، واتجه صوبهما حانقًا، مارقًا، غاضبًا بحق، كاد أن يصرخ فى الطريق، يوجه إليها لوم أو سباب، لكن شيئًا ما أخرسه، شيئًا ما قد عقد لسانه وأرهقه، عطل عقله لثوانٍ، قلبه كاد يقفز من صدره، خارت قدماه تمامًا فسقط على ركبتيه، يداه غطت فيه المفتوح، ودمعة رعب سالت فى صمت، كان كل منهما مشقوق بقسوة، شق طولى من قمة الرأس وربما لأخمص القدمين، شرخ مائل واضح يراه الأعمى والبصير، شق مرعب كالهول ذاته، المرعب أكثر أنهما كانا يبدوان طبيعيان تمامًا، ظلت هى واقفة تنظر له فى رعب لما يفعله، تلك النظرة فى عينيه كانت كفيلة ببث الهلع فى نفس أى شخص يراها، بدأت تأخذ خطوات للوراء مصطحبها زميلها الذى كان برفقتها، أمارك) فقد ظل لدقائق على الأرض

يبكى، يبكى ولا يفهم، كان هذا الحمل عظيمًا على أعصابه التى لم تعد تحتمل المزيد، ساعده بعض الناس ورفعوه عن الأرض، كان معهم ضابط شرطة، ضابط مرور، وكان، كان وجهه مشقوق أيضًا، بدأ(ك) يفقد وعيه ببطء، انهار تمامًا، وتراخى زراعاه جانبه، تدلى لسانه من فمه، يده ما زالت تنزف، قرروا نقله إلى أقرب مشفى.

لا يدرى كم من الوقت مر، استيقظ على إضاءة بيضاء وحوائط بيضاء وبلاطى بيضاء معلقة على الحائط أمامه، صداع شديد يضرب رأسه، لا يتذكر الكثير، فقط بعض الأوجه المشقوقة، ما الذى حدث بعدها؟ كان وحده فى الغرفة التى بدت نظيفة ورائحة المعقمات تفوح منها، أخذ ينظر حوله باحثًا عن أى شىء أو أى شخص، رفع يده فوجد أنهم قد ضمدوها، ضغط على زر استدعاء الممرضة، جاءت بعد دقيقة وبرفقتها طبيب كبير فى السن.

ما أن دلفا الغرفة عليه، ما أن طالع وجهيهما حتى ارتفع الأدرينالين مجددًا فى دمه، أخذ يصرخ مهتاجًا، لم يفهم الطبيب ما به، أمرها أن تحقنه بمهدئ، لما اقتربت منه كان الهلع قد تمكن منه فتحول خوفه إلى غضب، لما اقتربت أبعدها بقوة بيده، قفز من فراشه، حاول الطبيب اعتراض طريقه إلا أنه دفعه بقوة فسقط أرضًا، أخذ يجرى فى الممر الطويل كالمجنون، كان حافى القدمين، يرتدى نفس ملابسه الملطخة بالدماء، أخذ يقفز فوق الدرج قفزًا حتى وصل إلى الدور الأرضى، كان مزدحمًا، وهنا قابل مزيد من الأوجه المشقوقة، مزيد من الرعب والهلع،

لم يتوقف لحظة بل واصل الجرى، زاد من سرعته، غادر المشفى فى دهشة الموجودين أجمعين، نظرات الريبة والتشكك اعتلت الأوجه المشقوقة المرعبة، واصل الهرولة فى الشوارع قاصدًا بيته، تنفسه صار صعبًا، الصداع فى رأسه يزداد، يشعر بدوار بسيط لكن يتضاعف، كان الوقت وقت مساء، على الرغم لم تكن الشوارع خالية، كان يلقى فى طريقه مزيد من الناس، ومزيد من الوجوه المشقوقة التى تحملق فيه بلا فهم، ما الذى يجرى؟ أهل المدينة كلهم صارو مشقوقى الوجوه؟ أى هراء هذا، ماذا يحدث بحق الجحيم؟ واصل مسيرته بين سقوط وهرولة، جرح فى ركبته، تمزق بنطاله، ظل يدور حول نفسه ويدور، الجميع هكذا، الرجال العجائز رجال الشرطة حتى بعض الأطفال فى الشوارع، بدأ كل شىء يدور من حوله، لم يعد قادرًا على موصلة الجرى، رأسه صارت تدق بعنف وكأن بداخلها مارد يريد أن يخرج، قدماه تُسيلان دمًا، لا يدرى أعليه أن يهرب أم ماذا؟ مما يهرب؟،وإلى أين يهرب؟ لا يعرف أين هو أصلًا، تداخلت الطرقات والأحياء فى عقله، تائهًا كان، ضائعًا كان، مشتتًا كان.
كاد أن يسقط أرضًا فى منتصف الطريق، سار جارًا قدميه خلفه حتى وصل إلى شارع جانبى خالٍ وضيق، لا أحد هنا، لا مزيد من الأوجه الممزقة والشقوق الطولية، لا مزيد من الرعب على الأقل للحظات، ارتمى أرضًا مفترشًا أرضية الزقاق القذرة، تكوم على نفسه وأخذ يبكى، يتشج، يهتز بقوة، لا يدرى لم تذكر والده فى تلك اللحظة، ربما لأنه كان يراه يرتجف هكذا قبل أن يطرده من بيته ويودعه الدار؟ ربما لأن تلك أول

مرة منذ زمن يشعر فيها أنه بحاجة إلى أحدهم؟
على جانب الطريق المهجور كانت كومة كبيرة من قمامة وكراكيب أشياء قديمة، وسط تلك البقايا رأى سطحًا ما لامعًا، مرآة مكسورة كانت لكن تصلح بالتأكيد كى يرى وجهك، زحف(ك) حتى وصل، اقترب من مقلب القمامة، مد يده، تناول السطح المصقول، مرآة بالفعل، رفعها لأعلى، أمالها قليلًا حتى تريه انعكاس وجهه.
هل هذا شرخ ما؟ شق ربما؟ أم أنها ألاعيب الليل والظلال تمارس هوايتها؟ لم ينتظر جوابًا، فقط ترك المرآة المصقولة تسقط رأسيًا، تسقط على رقبته، سيل من الدماء بدأ ينساب فى حماسة، بركة سوداء بدأت تتشكل ببطء من حوله، جسده يرتجف من جديد، ماذا لو كان يتخيل؟ ماذا لو كانت تلك الشقوق موجودة منذ البداية، ماذا لو كانوا قد ولدوا بها ولم تظهر إلا الآن، ماذا لو كانت لا تعنى شيئًا على الإطلاق؟ ربما خطيبته لم تكن تخونه، وربما مديره لم يكن لصًا، وربما والداه راضيان عنه، لكنه بشكل أو بآخر كان يعلم أنها تخونه وأن مديره لص وأن والديه قد تعذبا بسببه، هل مات سدى؟ أم أنه قد عاش سدى؟ خطر السؤال فى باله وإن كان هذا آخر ما جال فى باله، آخره على الإطلاق.

ذكرى كان لا بد منها

فى عالم آخر يختلف عن عالمنا كانت الساعة فيه تتحرك طبقًا للأحداث، فإن كان هذا الوقت وقت العشاء وجدتها تشير إلى التاسعة مساءً، وإن كان وقت العمل تتحرك فتصير السابعة صباحًا، وإن كان وقت القداس تشير اللى الثانية عشرة ظهرًا وهكذا، كانت تتحرك حسب الأحداث، لا يوجد توقيت موحد، كل شخص ساعته تشير إلى ما يجب عليه القيام به الآن.
وإذا تذكرت شيئًا كان يجب عليك القيام به البارحة وجدت الساعة تتحرك للخلف وتتوقف عند توقيت القيام بالأمر الذى نسيته، حتى تنهى هذا الأمر ثم تعود مجددًا للحظتك الراهنة.
فى أحد الأيام التى شعرت فيها بالوحدة تذكرت شيئًا ما فجأة، فإذا عقارب

الساعة تدور بجنون للخلف، يوم اثنان، أسبوع شهر ثم عدة أشهر، تدور وتدور وأسمع تروسها تئن، تدور كإلكترون مجنون، لا يتوقف ولا يهدأ، مرت عشرة أعوام، ما هذا الشيء اللعين الذى تذكرته فجأة؟!

يبدو أننا رجعنا عشرين عامًا للخلف، لأن زوجتى المرحومة كانت تجلس على حافة الفراش فى غرفة نومنا، بدت حزينة، عيناها حمراوان، تبكى فى صمت، أتذكر هذا اليوم جيدًا، لقد عنفتها بشدة بسبب الطعام، وعندما جاءت تعتذر عنفتها مجددًا، دخلت إلى غرفتها، وماتت فى صمت، كنت مغرورًا جدًا فى تلك الفترة من حياتى الملعونة، لذلك تمكنت من مصالحة نفسى على ما اقترفت، رغم إننى اعترفت أن تلك المسكينة قد عانت كثيرًا بسببى.

دخلت الحجرة وظللت واقفًا أمامها طويلًا، ترى هل ترانى أصلًا؟ بدت جميلة جدًا، بقميصها الأبيض الحريرى وشعرها الأسود الفحمى ينساب على وجنتيها، جلست بجانبها، وضعت يدى على كتفها، طبعت قبلة على جبينها، أمسكت يدها، رفعت خصلات شعرها، همست فى أذنها أن تسامحنى، كانت تشعر بوجودى لكن لا تصدر أية ردة فعل، نظرت لى، بعين حزينة، كم افتقدتك، ابتسمت لى نصف ابتسامة، ولم تقل كلمة واحدة، وفجأة تلاشى كل شيء.

دارت العقارب للأمام مجددًا، بنفس جنونها السابق، وها أنا ذا، ما زلت جالسًا على مقعدى الوثير أمام المدفأة، أطالع الجريدة، وكلبى رفيق وحدتى نائم بعمق أسفل قدمى، وقد بدا مستمتعًا جدًا فى نومته، حتى أننى كنت

أحسده، فهو لا يدور بصدره ما يدور بداخلى الآن.

مستنقع الموتى

حين صار البشر قبيحين، حين صارت نفوسهم مزرية، حياتهم مقززة، عقولهم مدنسة ونفوسهم مهجورة، حين صار الوضع مروعًا ولما يعد فى قوس الحياة منزع، حين صار الاستغلال علمًا يدرس فى المناهج، والكذب يسبح مع جزيئات الهواء فى الفضاء، الخوف من بعضهم البعض صاروا يولدون به، الجميع خادع ومخدوع، معادلة متعادلة ناتجها مزيد من التشوهات، سلسلة متشابكة تبحث عن آخرها فلا تجد، تفتش عن أولها فتضل الطريق، حين صار الإيقاع بالآخرين فن يستحق الإشادة ومجهود يستحق التقدير، احترس يا بنى فالأفخاخ فى كل مكان، على الحائط وعلى قارعة الطريق، حين صارت الأنفس تتمنى الشر، تدعو

بالشر، تبتهج بالشر، تتمنى لو تراه فى سواها، صار هذا شغلها الشاغل، تلك النفس العظيمة العيية على الفهم، صارت تلك وظيفتها فقط، تلك الابتسامة الشامتة لم تعد تفارق وجوههم، ليتهم يعلمون أنها لا تزيدهم إلا خبالًا وقبحًا سقيمًا، حين اكفهرت أوجه الناس وأعتمت نفوسهم، لم يعد من بد للخروج من هذا الوضع الذى صار لا يطاق ولا يحتمل.

اقترح أحدهم حلًا، سخر آخر، وعكف ثالث على البدء فيه، فلنجعل الوجهة مرآة، مرآة للنفس، فلنجعله انعكاس، انعكاس للقبح، فلنجعلة صورة طبق الأصل لقلوبهم السوداء العفنة.

لا ندرى ما كانت تلك العاصفة التى قامت فجأة فى عصر أحد الأيام، لكنها كانت عنيفة بشدة، إعصار رهيب مر بالمدينة، اقتلع كل ما فى طريقه وأطاح به بعيدًا، دمرت طرقات، وبيوت قد هدمت بالكامل، لكن لم تكن تلك الفوضى هى أكثر ما أخاف الناس وأثار استغرابهم، فبعد أن هدأت العاصفة، ومرت الزوبعة بدقائق خيم سبات عميق على أهل المدينة أجمعين، الكل سقط فى مكانه غاطًا فى نومٍ طويل بلا أحلام، لا أحد يذكر كم دام سباتهم، لم يكن هناك أحد مستيقظ كى يدون أو يسجل، وحين استيقظوا كان العجب فى انتظارهم.

أسمعتم يومًا عن مدينة تسمى مدينة الدِمام؟ حسنًا تلك المدينة صارت هكذا، ما أن استفاق الناس حتى استبشروا خيرًا فهم ما زالوا أحياء، وما أن رأوا بعضهم بعضًا حتى أفجعتهم المفاجأة، أسوأ مفاجأة، كل تساءل من هؤلاء الذين يقطنون معى تحت سقف بيتى، أنا لم أر تلك الوجوه

القبيحة من قبل فى حياتى، أتلك الدميمة هى زوجتى، أهذا المشوه هو أبى، أحدب نوتردام هذا هو أخى؟! تبًا ما الذى يحدث؟ ثم من هذا؟! من هذا السلطعون الذى يرمقنى فى المرآة؟! هذا ليس أنا، غير ممكن، غير ممكن.

كل بيت ظن أن مرضًا أصاب أهله، لكن ما أن رأى الناس بعضهم بعضًا فى الطرقات وفى الحانات حتى تيقنوا أن هذا المرض أو هذا الوباء قد أصاب المدينة بالكامل، تبًا أى وباء لعين يفعل هذا؟ لقد صرنا أشبه بكائنات بحرية مقززة، لا ينقصنا سوى حراشف على أذرعنا وخياشيم وسيمكننا أن نعيش تحت الماء، هذا مروع، مروع ولا يجب السكوت عنه.

ترى ما الذى فعله هذا الذى اقترح وذاك الذى باشر تنفيذ المقترح؟ هما اجتمعا ذات ليلة فى بيت أحدهما، أعدا شيئًا ما، وقرآ من كتاب ما، تليا كلمات ما، أكان هذا سحرًا، شعوذة، استحضار أرواح، لا أحد يدرى أيضًا، وهما لم يُريا مجددًا فى المدينة، اختفيا تمامًا فى ظروف غامضة.

نعود لأهل المدينة الذين صاروا أكثر شرًا من ذى قبل، لم يعد أحد يطيق أحدًا، تخيل أن تنام بجوار امرأة تشبه حرفيًا فرس النهر، أو أن تبتاع طعامك من كائن مقزز يشبه ضبع كريه الرائحة، أو أن تدخل على مديرك فتجده مقوس الظهر طويل الأنف حاد المخالب، أى وباء يفعل هذا بحق السماء، لكن لم يكن هذا كل شىء، فقد لاحظوا شيئًا، أثار ريبتهم فى البداية، ثم أثار رعبهم.

هناك رجل عجوز يعيش مع ابنه الوحيد فى بيت متواضع بمكان ما بسيط بالمدينة، وكان الرجل يعمل تاجرًا وابنه كان يساعده، وكانا على غير عادة أهل المدينة، كانا تاجرين شريفين، لذا لم يكن يحبهما أغلب تجار المنطقة، بعد أن انتهت العاصفة، وبعد أن انقضت أيام وأسابيع على اكتشاف ما حل بأهل المدينة، فى أحد الأيام صرخ أحدهم بملاحظة هامة، الرجل وابنه يبدوان طبيعيان تمامًا، هما كما هما، بل بالإمكان القول أنهما صارا أكثر جمالًا وطلاوة بشكل ملحوظ، تمنى من سمع الملاحظة أن يهون ويحقر من أهميتها، لكن لم يكن بالإمكان إخفاء هذا الأمر، هناك شىء ما غير مفهوم، لم الوباء لم يصب أهل هذا البيت؟ لا بد من إجابة.

بعد أيام اكتشفوا بيتًا آخر، يقطنه رجل وزوجته، الرجل يعمل إسكافيًا، وزوجته ترعى قطعة أرض بجوار منزلهم الصغير، بعد أسبوع، رجل يعمل فى إحدى دور العبادة الخاوية منذ عقود، ثم فتاة كانت جميلة وصارت الآن أكثر جمالًا، اجتمع بعض كبار المدينة المشوهون وقرروا أن هؤلاء لا بد يخفون شيئًا ما، بل بالتأكيد هم المتسببون فيما حدث لنا، لن نتركهم، بحق الجحيم لن نتركهم.

فى ليلة كالحة هاجموا بيوتهم، فتشوها تفتيشًا دقيقًا، ولما لم يجدوا شيئًا اقتادوهم إلى ساحة فى وسط المدينة، ربطوهم إلى بعضهم البعض، اثخنوهم ضربًا، استجوبوهم بعنف، ما الذى فعلتموه لنا؟ أى وباء نشرتموه بيننا؟ أعطونا من الترياق الذى حقنتم أنفسكم به، لن نترككم حتى تجدوا

حلًا لما اقترفت أيديكم.
بالطبع انتهت تلك المهزلة إلى لا شيء، لم يحصلوا منهم على شيء لأنه ببساطة لا يوجد شيء، بعد يوم ونصف قرروا أن يتركوهم يعودوا إلى بيوتهم، على أن يراقبوهم من بعيد، لربما يخفون شيئًا ما.
مرت أشهر والأمر كما هو، تلك التشوهات كانت تزداد وتقل لا أحد يعلم كيف ولا لماذا، استشاروا أكبر أطبائهم، جاؤوا بعلماء من خارج المدينة، والكل أجمع أن هذا الذى رأوه لم يسبق لهم أن رأوه من قبل، أخذوا عينات وجربوا أكثر من علاج وأكثر من ترياق لكن لا شيء، لا علاج، لا دواء، لا نهاية لهذا الكابوس غير المفهوم.
بعد سنة أو يزيد بدأوا يلجأون لعمليات تجميل باهظة الثمن، عمليات لإزالة الوجه بالكامل وتغييره، إلى هذا الحد كانوا دميمين حقًا، وكان قبحهم يتدرج بشكل ملحوظ من أعلاهم إلى أدناهم، من أغناهم إلى أفقرهم، من أعظمهم منزلة إلى أدناهم درجة، فكان حاكم المدينة أكثرهم دمامة، ومعاونه، وكان حى الأغنياء فى المدينة هو الأكثر قبحًا، وهكذا، كان هذا ملحوظًا لكنه لم يؤدى بهم إلى أى استنتاج من أى نوع.
أخذت تلك العمليات التجميلية تُجرى على قدم وساق، علميات معقدة وصعبة للغاية، النساء كن يجرينها مرة بعد مرة على أمل الحصول على أية نتيجة، لكن الغريب أنهم كانوا يزدادون قبحًا فوق قبح، ومع تلك الجراحات الكثيرة صاروا كالمسوخ تمامًا.
مات التاجر العجوز وتولى ابنه المتجر بالكامل، كان يبيع الأقمشة

وخامات الخياطة البسيطة، فى عصر أحد الأيام وفى ساعة صفاء وهدوء أقبلت تلك الفتاة الجميلة تبحث عن شىء ما ولم تجده عند أكثر من بائع، وقادتها قدماها الصغيرتان أو فلنقل قادها القدر إلى هذا المتجر بالذات، كان الفتى فى ريعانه وفتوته وكان مهذبًا فى كلماته ونظراته، علقت الفتاة عينيها به طويلًا، وكذا فعل هو، لقد التقيا من قبل، نعم فى ذلك اليوم المشؤوم، لم يلاحظ جمالها إلا الآن، ولم تلاحظ هى سحره إلا فى تلك اللحظة، تبادلا حديثًا رقيقًا، عرف بمكان إقامتها، وعدها بزيارتها ووعدته أنها لن تغلق بابها فى وجهه.

بعد شهر أو أقل كان قد صار زوجها وصارت هى رفيقة حياته، كان مشهدهما وهما ممسكان بيدى بعضهما البعض فى هذا الحفل المتواضع جميلًا مبهجًا جدًا، أبهج الناس للحظات لم تدم، فقد تولد مكانها حقدًا وغلًا على هذين الزوجين السعيدين الجميلين، فقد كان جمالهما أخاذ وملفت، خاصة فى مستنقع القبح هذا، كان الرجل الطيب الذى يعمل فى دار العبادة ما زال على قيد الحياة، وهو من أعلنهما رفيقان طوال الحياة.

انتقل ليعيش معها فى بيتها فقد كان أوسع، ونقل متجره إلى هذا المكان أيضًا ففرصة الرزق فيه أكبر، عاشا لأشهر فى سعادة بلا شىء ينغص حياتهما، ربما كلمات من هنا وأخرى من هناك، لكن الحياة تستمر وكل شىء يمر، بعد عام ونصف رزقا بملاك صغير أطلق عليها اسم أمها لشدة حبه لها، وبعد عام أو يزيد رزقا بتوأمين أكثر جمالًا وإشراقًا، وسع الله عليه فى رزقه وصار لديه بدلًا من المتجر ثلاثة، وكان على عادته هو

وزوجته فى أخلاقهما تجاه الناس وتجاه الله، كان ضميره يحركه وكان عطفها على الناس منارة لها.

لكن الناس مرضى، مرضى الأفئدة، وأمراض الأفئدة بلا دواء، لم تعفهما طيبتهما وودهما لأهل المدينة فى شىء، فلم يسلما من حقد يزداد عامًا بعد عام، ولا من حسد وغل يلتف حول منزلهما الصغير شهرًا بعد شهر، زادت منها أصوات الضحكات بالداخل، ضحكات الرضا والسعادة من الرجل وزوجته وضحكات اللهو والمرح من الملائكة الثلاثة.

خلال الثلاثة أعوام تلك كان كل أمل فى جلاء هذا الوباء قد انقضى، حتى عمليات التجميل التى لم تتوقف لم تعد تُجدى، فى أحد الأيام لم تحتمل امرأة سيئة السمعة دميمة الوجه بشكل مبالغ فيه، لم تحتمل جمال تلك المرأة المتزايد، كانت تبتاع شيئًا من السوق، فاعتدت عليها بالسب وكادت أن تضربها.

فى يوم آخر قام مدرس أحد أبناء الرجل بضربه بشكل مفرط بلا أى مبرر، وفى يوم ثالث اعتدى مجهولون على متاجر الرجل فأحرقوه منها اثنين ونجا الثالث فى آخر لحظة، لم يكن يعلم ما الذى يحدث ولم الآن.

بدا أن أهل المدينة لم يعودوا يحتملوا رؤية تلك الوجوه النضرة فى المدينة، إما أن تكونوا مثلنا وإما أن ترحلوا عنا، لن نحتمل أن نرى تلك السعادة والرضا على وجوهكم، لن نحتمل أن نسمع ضحكاتكم، تبًا لكم، لا بقاء لكم معنا إلا إذا صرتم تشبهوننا.

فى أحد الأيام جاءته تبكى بحرقة:

-"ماذا حل بكِ؟"

-"علينا أن نرحل من هنا".

أجاب مهمومًا:

-"أعرف، أعرف، لكن هل حدث شيء جديد؟"

كشفت عن رقبتها وقد بدا أن مكانًا ليس صغيرًا قد أصابه شيئًا ما.

-"يا إلهى ما هذا؟"

-"كنت أبتاع ما نحتاجه كعادتى، فإذا بامرأة لم أرها من قبل تقبل مسرعة وفى يدها قنينة، أسقطتنى أرضًا وحاولت سكب ما فيها على وجهى، كانت تصرخ بهستيريا ستصيرى مثلنا، لن يطيقك زوجك فى فراشه بعد الآن، وأشياء من هذا القبيل، الغريب أن أحدًا لم يتدخل وأخذت أقاومها فلم تتمكن منى وسقطت محتويات القنينة على الأرض إلا قطرات لامست رقبتى وها هى النتيجة!"

طوق الرجل زوجته بذراعيه يحتضنها وهدأت هى بمجرد أن نامت على صدره، وتمتم قائلًا: "سنرحل، قريبًا سنرحل".

كانت تلك الحانة فى المدينة هى مكان اجتماع كل أهل الشر وأصحاب المكائد، فى الواقع كان معظم إن لم يكن كل أهل المدينة من أصحاب الحيل والمكائد، لكن كعادة أى شيء، هناك من يقود ويحرض وهناك من ينفذ ولا يسأل، عدد من الرجال بزوجاتهم الغليظات اجتمعوا ليبحثوا أمر تلك العائلة السعيدة بشكل مبالغ فيه.

قالت إحداهن:

-"يجب أن يرحلوا".

وقال آخر:

-"بل يقتلوا".

وردت أخرى:

-"نشوه وجه المرأة فيكرهها زوجها و يعيشوا فى جحيم".

-"بل نشوههم كلهم وندمر حياتهم".

-"بل نشوه الأطفال ونقضى على آمالهم".

وفى النهاية قرروا:"سنحرق عليهم البيت وهم فيه وليحترقوا، فإن نجوا فقد شوهوا، وإن رحلوا فقد رحلوا".

دوت صيحة انتصار واحتسوا البروندى على شرف تلك الجلسة وعلى شرف هذا الاتفاق الخسيس، ودبروا أمرهم أن يهاجموهم بغتة وهم نائمون.

امرأة ما كانت جالسة وقد استمعت إلى هذا النقاش، علمت بالموعد الذى اتفقوا عليه، لسبب هى نفسها لا تعلمه شعرت بالشفقة على أهل هذا البيت، ولنفس السبب المجهول رأت أن عليها أن تحذرهم، اتجهت فعلًا إلى البيت العتيق، طرقت الباب وفتح الرجل فى وجل، أطل بوجهه حذرًا، توقع وجه مشوه كالعادة، لكنها كانت امرأة تبدو عادية جدًا، تبدو طيبة وهادئة الملامح جدًا، تعجب كثيرًا، اطمأن لها وأدخلها.

لم تُضع هى وقتًا.

-"عليك أن ترحل أنت وزوجتك وأبنائك، سيهاجمون البيت الليلة، وأنتم نيام، سيحرقون كل شىء، سيسدون المخارج وسيتأكدون من أن هذا

البيت سيكون بمثابة فرن عملاق لكم".
جاءت زوجته من غرفة نومها على صوت المرأة الحذر، تأبطت ذراع زوجها فى جزع وحسرة.
-"هل أنتِ متأكدة؟"، سألها.
-"كنت على الطاولة المجاورة لهم فى الحانة حين دبروا أمرهم".
-"حسنًا سنحزم حقائبنا ونرحل الآن، لكن..."
-"لكن؟"
-"لم قررتِ أن تساعدينا؟"
-"لا أعرف، صدقنى يا بنى لا أعرف".
أطال النظر إلى عينيها الصافيتين الهادئتين.
-"لا أعرف كيف يسعنى أن أشكرك، لكن لو عرفوا ألن تكون هناك خطورة عليكِ؟"
-"ربما، لكن ماذا بإمكانى أن أفعل؟!"
تدخلت زوجته بسرعة:
-"اهربى معنا".
أطرقت المرأة لدقائق:
-"إلى اين؟ ثم إننى لا أمتلك من المال شيئًا يعيننى فى أى مكان آخر".
-"ستكونين معنا ولدينا من المال ما يكفينا ويزيد".
"هيا، هيا، لا تقلقى سيكون كل شىء على ما يرام، استريحى أنتِ قليلًا حتى نوقظ الأطفال ونعد الحقائب".

بعد ساعة تقريبًا كان ثلاثة ظلال تسير مهرولة إلى خارج المدينة، الرجل وزوجته والمرأة التى أنقذتهم، كلً يحمل طفلًا على أحد كتفيه، وحقيبة كبيرة على الكتف الآخر.

قبل بزوغ الفجر بساعة ونصف تقريبًا أقبل جيش من أهل المدينة بحماسة غير عادية حاملين مشاعل وكرات نار ومواد قابلة للحرق، طوقوا البيت بالكامل، سدوا الأبواب والنوافذ، وأحرقوا كل شىء، أحالوه جحيمًا مقيمًا، تعالت صيحات الانتصار الزائف، انتصار القبح على الجمال، والتمعت وجوههم المزيفة القبيحة على ضوء النيران الحمراء، بدوا فى تلك اللحظة كسباع وضباع ووحوش برية مخيفين، لا وجوههم وجوه بشر ولا ظلالهم ظلال بشر، مسوخ تبدو سعيدة، مع كل جدار يسقط كانت الصيحات تزداد، ومع كل صيحة كانوا يزدادون قبحًا، وجوههم تستطيل حتى صارت كوجوه الذئاب، ظهورهم تقوست وبرزت عظامها، مخالبهم استطالت، وجلودهم صارت حراشفًا، ضاقت أعينهم كثيرًا وبحت أصواتهم، انبعجت سيقانهم وضاقت خصورهم، لم يعد لهم معلم واضح ولا هيئة محددة.

صاح أحدهم:

-"يكفى هذا أطفئوا النيران كى نستمتع برؤية أجسادهم المتفحمة".

-"نعم، ترى كيف صارت الآن بعد أن كانت تتلألأ فى الطرقات بيننا؟"

-"هاهاها، نعم، أنا متحمس للغاية".

جاؤوا بماء واطفأوا النيران، بحثوا بشغف فى باده الأمر، تحول الشغف إلى

قلق، تحول القلق إلى يقين، وانتهى بهم بحالة من الرعب، تبًا، لا توجد جثث محترقة، لا أجساد متفحمة، لا بقايا أشلاء ولا رؤوس مقطوعة، أين ذهب هؤلاء الشياطين، ودوت صرخات عميقة، صرخات أشبه بعواء مخيف فى قلب غابة، أو نعيق بوم فوق شجرة محترقة، صرخات أبالسة وجان يحترقون فى حلقة جحيم لا ينطفئ، شعور بحسرة تنهش ما بقى من قلوبهم، شعور برغبة فى الفناء، شعور بضياع أخر أمل يجعل لديهم سببًا للاستمرار، يعطى مبررًا لتلك الحياة القاسية المخيفة، أى شىء نحققه، نحتاج أى شىء ولو كان شعورًا بالتشفى، حتى هذا لم نحققه، بهتوا جميعًا وهل عليهم الصباح كئيبًا صامتًا فوق صمتهم، بسماء ملبدة بغيوم سوداء كوجوههم، لم ينبس أحد ببنت شفه، لم ينطق أحد، لا كبيرهم ولا صغيرهم، انقطعت الضحكات والصيحات وحتى الصرخات، عاد الكل خائب الرجاء منكس الرأس، ضاعت فرصة التشفى الأخيرة، ضاعت وإلى الأبد.

وصل الرجل وعائلته والمرأة إلى مدينة نائية أهلها طيبون، استقبلوهم بوجوه باشة وثغور باسمة وأذرع مفتوحة، أسسا حياتهما هناك وبدآ من جديد، لكن بقلب مطمئن وثقة زاد قدرها بعدما مرا به من صعاب.

أما تلك المدينة، مدينة الدِمام، فقد ظل أهلها يرزحون تحت وطأة نفوسهم الدنسة إلى الأبد، لم يتعظوا ولم يتعلموا شيئًا، لم يستنتجوا أن قبح وجوههم كان من قبح قلوبهم، ظلوا كما هم، يتحاسدون ويتباغضون، ظل الغش منهجهم والكذب مرشدهم، ظلوا يجتمعون فى الحانات يغتابون فى هذا

وتلك حتى يغلبهم السكر فيسقطوا مغشيًا عليهم، يتقيأون على بعضهم البعض وتختلط وجوههم القبيحة مع رائحة أنفاسهم الكريهة مع رائحة بول وعفن يليق بهم، صاروا أشباه موتى، صاروا مقززين تمامًا، لم يعد لهم حدًا فى الشرف حتى أهل البيت الواحد دنسوا فراش بعضهم البعض، لم يعد هناك من يثق بأحد، فحتى الأخ صار يستغل أخاه ويخدعه، يغافل أباه ويسرقه.

وحين ترتفع لأعلى، تلقى نظرة على تلك المدينة البائسة من علٍ، تشم تلك الرائحة العفنة التى تفوح منها، وتلاحظ القبح الذى حل بكل شىء فيها، شوارعها وأشجارها وبيوتها، كل شىء صار قبيحًا، كل شىء صار عفنًا، ورغم كل هذا فقد كان الناس يروحون ويجيئون، يأكلون ويشربون، يتزوجون ويتناسلون، كل شىء يسير ويستمر وكأن شيئًا لم يكن، وكأن كل هذا القبح صار جزءًا منهم، توحدوا معه فصاروا لا يرونه أبدًا، ومهما زاد وعظم فلن يلفت هذا نظرهم، بل صار الشاذ والغريب أن يروا وردة جميلة، أو طيرًا أبيض فاتن.

فى أحد الأيام أمر حاكم المدينة أن تثبت لافتة كبيرة فى مدخل المدينة، لافتة كتب عليها: «لا تنظر إلى وجوهنا، فالجمال بداخلنا».

متجر القلوب

كانت عقارب الساعة قد تجاوزت الثانية عشر مساءً فى هذه الليلة، الطرقات خالية، الإضاءة خافتة، مصدرها مصباح عجوز يتدلى فى كآبة، ألقى بظلال بدت مخيفة على امتداد الطريق، الجو زمهرير فالشهر كانون، الرياح تأن وغير هذا سكون، حتى إننى كنت أسمع خطوات حذائى البالى على الأسفلت الجاف، أحكمت إغلاق سترتى، رجفة تلو الأخرى كانت تسرى خلال جسدى، كان بالى مشغولًا بأشياء لا أستطيع التعرف عليها، هراء، الكثير منه فى الواقع، حتى إننى لم أنتبه إلى أين أخذتنى ساقاى منذ غادرت المنزل هذا المساء، آخر ما علق بذاكرتى إننى كنت نائمًا فى حجرتى، استيقظت فجأة دون سبب، ظللت أحملق فى الظلام لنصف

ساعة تقريبًا، وشعرت فجأة بضجر شديد، وضاقت على روحى جدران الغرفة، فخرجت لغرفة المعيشة وأعددت كوبًا من شاى ثقيل، احتسيته ببطء أمام تلفاز مغلق، وصوت تكات الساعة من خلفى، كنت وحدى كعادتى، لم أنه كوب الشاى، لم أحتمل، شعرت أن روحى تختنق فعلًا، كنت فى حاجة إلى بعض الهواء البارد، فكرت أن أهاتفها لكنى كنت أعلم أنها لن تجيب، فتراجعت عن الفكرة.

ارتديت ملابسى سريعًا، التفعت كوفية سمراء كانت قد ابتاعتها لى يومًا، لم أنظر حتى فى المرآة، خلال دقائق كنت على متن حافلة لا أعرف إلى أين كانت تتجه، واصل الركاب مغادرة الحافلة واحدًا تلو الآخر، وحين وصلنا لآخر الخط لم يتبق معى سوى رجل عجوز صامت كشجرة بلا أوراق، غادرت الحافلة، كنا قد وصلنا إلى منطقة على حدود المدينة، بجوار النهر، كان هذا جيدًا، اقتربت حتى صار على مسافة خطوات منى، كان هناك طريق طويل يسير بموازاته، البرودة قد بدأت تشتد، النهر كان معتمًا تمامًا، أسود فلا ترى منه سوى امتداده، وشعرت أن بعض الضباب قد بدأ يتكون فى الأفق، وخالجنى شعور بأن فكرة التجول بعيدًا فى هذا الوقت كانت فكرة حمقاء ربما!

سرت لساعة تقريبًا حتى جاوزت العقارب الثانية عشرة، كنت قد غادرت النهر واتجهت صوب طريق خال بدا لى غريبًا بلا سبب، كان خاليًا سوى من بعض الأشجار المتناثرة يمينًا ويسارًا، وبعض أعمدة الإنارة التى لا يعمل منها سوى ثلاثة أو أربعة على الأكثر بامتداد الطريق، بإضاءتهم

الصفراء الكابية المقيتة، كانت حوانيت ومتاجر صغيرة على يسار الطريق، مغلقة كلها بالطبع، فكرت إننى ربما لن أتمكن من العودة، فلم أر سيارة واحدة تمر منذ وصلت هنا، وشرعت أفكر فى خطة للعودة لكنى لمحت شيئًا جعلنى أنسى ما كنت أفكر فيه، إضاءة بيضاء شاحبة تخرج من جانب الطريق، على بعد بضعة خطوات، أسرعت قليلًا، فإذا بمتجر صغير مفتوح، كان هو مصدر الضوء، كان يبدو عجيبًا جدًا من الخارج، اقتربت منه، كان متجرًا خشبيًا وكان للخشب لون أحمر داكن لا يتناسب مع المكان، تعلوه لافتة صدئة كتب عليها كلمتين-بالصينية فيما يبدو- لم أفهمهما بالطبع، وله واجهة زجاجية متسخة شاحبة، وخلفها كانت تماثيل عجيبة الشكل مغطاة بتراب كثيف، بدت لى أشبه بتماثيل صينية أو هندية، لا أعرف بالضبط، لكنها كانت لكهنة أو قديسين فيما بدا لى، وكانت التعبيرات على وجوههم تبدو حقيقية نوعًا، أبهرتنى التفاصيل وإن لم تعجبنى، فلم تبد لى مريحة على الإطلاق، كانت هناك تماثيل لرجال ذوى أجساد رفيعة جدًا حتى إنهم كانوا شبه عراة، وكانوا يحملون فى أياديهم ما يشبه الميزان، كان كل هذا عجيبًا.

صراحة كانت التفاصيل جيدة، بل جيدة جدًا، وإن كانت أيضًا لم ترحنى على الإطلاق وشعرت إن ما رأيته قد أعاد لى انقباضى الذى خرجت فى الأساس كى أتخلص منه.

استرقت النظر للداخل، كان المحل خاليًا من الزبائن، بالطبع، أى مجنون سيشترى هذا العبث؟! دعك من الوقت والبرودة، لكنى وبدون أن أفكر

وجدتنى أدفع الباب الخشبى الذى أصدر صريرًا مخيفًا وألج إلى الداخل.
كان الدفء هو أول ما شعرت به، وتلاشى صوت الرياح، وأحسست بامتنان لتلك الخطوة، كان المكان عتيقًا بالداخل، وكأنه بُنى منذ ستين عامًا، الأرفف الخالية مردومة بتراب كثيف، حتى إن الأرض نفسها كانت مغطاة بتراب لا تخطئه العين، هذا المكان لم يدخله أحد منذ فترة، الإضاءة كانت خافتة، فقط مصباح واحد فى بداية المحل، حتى إن المكان بالداخل كان مظلمًا، فلم أتعرف إلى أى مدى يمتد، كانت هناك قلائد عجيبة الشكل معلقة فى كل مكان، وطواطم ورموز لأشياء لم أفهمها، هناك كلمات كتبت بلغة لم أتعرف عليها، كان هناك أعواد بخور مشتعلة ترسل رائحة زكية، وإن كانت غريبة على أنفى، تماثيل فى كل مكان، بعضها كان لعبيد يسجدون لصندوق مغلق، وأخرى لما بدا إنه الشيطان ذاته، كانت سوداء ومخيفة حقًا، ظللت أتلفت حولى أشاهد هذا الحفل من التماثيل والقلائد العجيبة، خطوت للداخل خطوتين إضافيتين، وهنا أجفل رجل عجوز كان يجلس أمام تلفاز خفيض الصوت، التفت فى بطء ناحيتى ثم قام من مجلسه واتجه ناحيتى، لم تكن توقعاتى كلها خاطئة، فقد كان عجوز صينى، أو يابانى، لا أستطيع التفرقة بينهم فى الواقع، وهم ليسوا كثر فى مدينتنا، فأثار هذا غرابة مضاعفة فى نفسى، بالطبع كان هذا استنتاج منى من ملامحه، العينان الضيقتان والرأس المستدير، كانت خالية من الشعر، وكان له شارب طويل متدلٍ، ووجه حليق، كان فى الخمسينيات على أقل تقدير، لكن تجاعيد وجهه لم تكن كثيرة وإن

كانت ظاهرة، كان يبدو هادئًا جدًا وله ابتسامة وديعة.
بصوت خفيض ونبرة ترحاب لكن بها رجفة من بلغ سنه حد الإرهاق من الحديث:
-"مرحبًا يا بنى، أهلًا بك".
كانت يتحدث إنجليزية متهالكة، وكأنها تخرج من فم إنسان آلى، لكنها فى جميع الأحوال ستكون أفضل بالنسبة لى من الصينية وإن نطقت كما يقول الكتاب، ابتسمت بدورى وحييته بإيماءة من رأسى.
-"كيف لى أن أساعدك؟ هل تبحث عن قلب معين؟"
قلب؟! هل قال قلب؟! سألت نفسى محتارًا، لكنى قدرت أن الرجل يتحدث الإنجليزية بصعوبة، فربما خانه التعبير، وإن كانت كلمتى"شىء" و"قلب" لا علاقة لأى منهما بالأخرى، لكنى لم أتوقف كثيرًا عند هذا.
-"لا، فقط كنت عابرًا بالصدفة وجذبتنى التماثيل بالخارج، تبدو لى متقنة فعلًا، هل هى غالية الثمن؟"
هنا ابتسم بعمق وأردف:
-"أنا سعيد إنها أعجبتك سيدى لكنى لا أبيع هذه التماثيل، أنا صنعتها بيدى، لكنها ليست للبيع".
لم يعرضها إذا؟! كان هذا سؤالًا فى نفسى.
فقررت أن أمزح:
-"خسارة، كانت ستأتيك بربح ليس سيئًا على الإطلاق".
-"أشكرك".

قررت أن أشكره وأرحل، فقد شعرت أننى أضيع وقتى هنا، والساعة قد شارفت على الواحدة، لكنى قررت أن أسأله سؤالًا أخيرًا من باب المجاملة، قررت إنه مهما كانت إجابته فسأسمعها وأرحل:

–"ماذا تبيع إذًا؟ هذه القلائد؟"

–"لا يا سيدى، ولا هذه القلائد".

وصمت لثوانٍ وأكمل بعد أن اختفت الابتسامة قليلُا عن وجهه:

–"أنا أبيع قلوب".

–"عفوًا؟! هل قلت قلوب؟!"

–"نعم، قلوب، كهذا، وأشار إلى يسار صدره".

آه، رائع جدًا، إذًا أنا أمام عجوز صينى مختل تقريبًا، كيف أهرب من هذا المعتوه؟!

–"عفوًا، ماذا تقصد سيدى؟ تعنى تماثيل لقلوب مثلًا، أو..."

–"لا، لا أقصد تماثيل يا بنى، أنا أقصد قلوب حقيقية، كهذا الذى بين ضلوعك وهذا الذى بين ضلوعى".

تعمدت ألا أرسم أية تعابير على وجهى، فقد شعرت إنه يسخر منى، أو إنه فعلًا مجنون، وقررت أن أرحل، لكنه أكمل:

–"أعلم إن هذا يبدو لك جنونًا، لكن الأمر ببساطة، هو أننى بإمكانى بواسطة وصفة سحرية قديمة، بعض الطقوس والتعاويذ، أن أستبدل قلبك بقلب آخر إذا أردت أنت ذلك، ولا يوجد سوى شرط واحد للاستبدال، هو أنك حين تموت فإنك تمنح لى قلبك إلى الأبد، كى أستخدمه مع غيرك،

لهذا، ستجد عندى مخزونًا كبيرًا من القلوب على اختلاف أنواعها، قلوب قاسية وقلوب ضعيفة، قلوب عاشقة وأخرى شبه ميتة، أرى على وجهك أنك لا تصدقنى، بإمكانى أن أريك كل شىء لو أردت، أنا أقوم بهذا العمل منذ أكثر من أربعين عامًا، أبى علمنى هذه الوظيفة النبيلة.

لكن، أتعلم؟ أنا أشعر إن قلبك قد جرح منذ فترة ليست بالبعيدة، صدقنى، معظم من جاؤونى لم يكن لديهم أدنى فكرة عما أقوم به، لكن فقط قادتهم أرجلهم هنا دون سبب، هم فقط وجدوا أنفسهم هنا، وكلهم تقريبًا كان قلبه به مصاب ما، وكان فى حاجة إلى قلب جديد، أنت جئت هنا دون سبب، أليس كذلك؟»

لم أستطع الإجابة عليه بسرعة، كنت فى حاجة إلى بعض الدقائق كى أستوعب ما يقوله هذا الرجل المخبول، كان يحكى عن الأمر وكأنه يعرض علىّ بضاعة ما، يتحدث بشكل عادى تمامًا وهذا ما أكد لى إنه فى مرحلة متقدمة من الجنون، الشيخوخة تفعل أكثر من هذا بالتأكيد.

-«امممم، عذرًا سيدى أنا يجب أن أرحل الآن، الوقت قد تأخر».

هنا ابتسم الرجل من جديد وقال مودعًا:

-«حسنًا يا بنى، على كلٍ أنت صرت تعرف المكان، لو لم يتعاف قلبك سريعًا لا تتردد».

-«شكرًا لك، وداعًا».

غادرت المكان وأنا أشعر بغضب لا أعرف له مبرر أو سبب، ربما لأننى شعرت إنه يسخر منى، ربما لأنه كان يتحدث بثقة زائدة استفزتنى، لماذا

قال إن قلبى مجروح؟! أنا واثق من إننى أخفى هذا جيدًا!
كان الضباب قد غطى الأفق بالكامل والبرودة صارت لا تحتمل، لم أكن أعرف كيف يجب أن أتجه وشعرت أننى ضللت الطريق، كنت أسير وأنا أشعر إننى أهرب، كنت أريد لسبب لم أتبينه أن أبتعد قدر الإمكان عن المكان وعن هذا الرجل المقيت، شعرت أننى أتذكرها الآن مجددًا بقوة، لم أكن قد نسيتها بالطبع، لكنها تعود الآن بشكل يمزق قلبى، وعقلى، وروحى أيضًا، واكتشف فجأة أننى أضعف كثيرًا أمام مجرد ذكراها، تبًا لك أيها العجوز الأخرق، ليتنى لم أدخل هذا المكان المريب.
واصلت المسير هروبًا، حتى تبينت النهر، وكنت أعرف أن نهايته ستقودنى إلى وسط ميدان يعتبر حيًا مقارنة بهذه الصحراء، بحلول الثانية والنصف كنت أجلس بجوار شاب ثلاثينى فى سيارته الدافئة، قرر أن يقلنى بعد أن أشفق علىّ من وقفتى وسط الضباب منتظرًا اللاشىء كى يقلنى، ولحسن حظى كان يمر فى هذه اللحظة، وكان طريقنا مشترك، لم أتفوه بكلمة طوال الطريق، فقط ظللت غارقًا فى ذكرياتى المؤلمة التى زارتنى فجأة، وفى هذه الرحلة العجيبة، وهذا الرجل المريب.
نمت سريعًا فى هذه الليلة، كانت ليلة طويلة، زارنى هذا العجوز فى أحلامى، كان يتكلم الصينية والغريب أننى كنت أفهم كلامه وأجيبه بشكل ما، عندما استيقظت لم أستطع التخلى عن عادتى التى واظبت عليها ثلاث سنوات يوميًا دون انقطاع، فتحت هاتفى، انتقيت اسمها، وضعت إصبعى على زر الاتصال، لكن هذا هو الأمر الجديد، إننى لن أضغط على

الزر، لا أستطيع، اختلاف بسيط لكنه كان يعنى كل شىء.
لم أتناول أى إفطار، فقط أعددت قهوتى وخرجت للجريدة، كنت أتمنى أن أستمر أكثر من هذا فى تلك الإجازة التى وافق عليها مدير التحرير بصعوبة بالغة، لكن البارحة كانت آخر ليلة بالتحديد، لم أكن مستعدًا لمقابلة أحد، سأدلف إلى مكتبى وأغلق بابى، وربما أرحل مبكرًا.
مر أول اليوم بشكل معتاد فى قسم الحوادث الذى أتولاه، لا شىء جديد سوى الحوادث المعتادة، لص على دراجة نارية يخطف حقيبة سيدة مسنة بعد خروجها من البنك، خمسينى يحاول استدراج طالبة عنده إلى بيته، شاب يقتحم منزل مجاور ويتم اعتقاله، نصاب إفريقى يهرب بمبالغ طائلة، مدمنان يقتحمان متجرًا صينيًا بغرض سرقته ويعتدون على صاحبه، كل هذا كان عاديًا حد الملل، مهمتى باختصار أن أصيغ هذه الحوادث فى عدة أسطر بعد أن أعرف بعض التفاصيل، وأحيانًا فى بعض الحوادث الكبيرة يُطلب منى أن أصطحب مصورًا ونذهب لنغطى الحدث، ولو لم يكن المصور متاحًا يكون التصوير مهمتى، وكنت أتقبل كل هذا، فأنا لم أكن فى التايمز على كل حال.
لم تكن حادثة سرقة المتجر شيقة أو جديدة إلى حد أن يطلب منى الرئيس أن أذهب لأغطيها كصحفى ميدانى ومصور ثم أعود إلى مكتبى كمحرر لأكتب ما رأيت، لكنى كنت قد بدأت أشعر بالضجر وكنت سأرحل على أية حال، فاتفقت معه أن أنهى هذه المهمة وأعود إلى البيت فوافق دون نقاش.

حصلت على العنوان، لم أنظر فيه، أخذت حقيبتى وخرجت من البناية الكئيبة، صادفت زميلة سمجة كانت وما زالت تلاحقنى بابتسامة ثقيلة لم أدر ما مبررها، فابتسمت بدورى نصف ابتسامة بثغر مغلق وأكملت طريقى.

كان الطقس بالخارج باردًا، والأفق لا تظهر منه الشمس، وكأن ضباب الأمس لم ينقشع بعد، سرت مسرعًا ثم اختبأت داخل صالون سيارتى المتهالكة، أدرت المحرك وقبل أن أتحرك أخرجت الورقة من جيب سترتى، قرأت العنوان، ثم قرأته مجددًا، كان هذا هو على الأرجح نفس المكان الذى كنت فيه بالأمس، لقد كان هذا عجيبًا، وأغلب الظن أيضًا أن المتجر الذى تم اقتحامه هو نفس المتجر الذى زرته بالأمس، أى صدفة تلك! سرحت لدقائق متعجبًا ودارت فى بالى تفاصيل ليلة البارحة، دفعنى تعجبى إلى الإسراع لاكتشاف ما جرى وتساءلت هل ذكر الخبر !أن العجوز قد نجا أم إنه قد قتل؟

كان الطريق خاليًا وبدا كل شىء رماديًا أكثر، وزخات مطر خفيفة قد بدأت تظهر على زجاجى الأمامى، بعد ثلث ساعة تقريبًا كنت فى المكان، يا إلهى، كان هو المتجر فعلًا، ضربت الشرطة حزامًا من شريط فسفورى حول المكان، كان بعض الناس وصحفى أو اثنان هناك، بعض رجال الشرطة بسياراتهم الزرقاء تعطى للمشهد هيبة غير مبررة، اقتربت قدر استطاعتى، أوقفت السيارة وترجلت، اقتربت من المشهد، كانت واجهة المتجر مهشمة تمامًا، وتماثيل كثيرة أيضًا تم تحطيمها، الباب قد تم

خلعه أو كسره، متى حدث كل هذا، حين غادرت المتجر كانت الساعة نحو الثانية، سألت أحد الواقفين متى حدث الاعتداء، فكان الجواب إنه ما بين الثالثة والخامسة فجرًا.

خلال دقائق أخذت أجمع فى معلومات من الشرطة ومن الواقفين وشهود العيان، ما حدث ببساطة أنهم دخلوا ثم أشهروا سلاحًا فى وجه العجوز وطالبوه أن يخرج ما لديه من نقود، ولما لم يخرج لهم شيئًا اعتدوا عليه بالضرب حتى أغشى عليه ودمروا المكان ثم رحلوا، الجيران سمعوا أصوات التكسير وأخذوا العجوز إلى المشفى، ويقولون إنه حتى الآن مغشى عليه، أخذت عنوان المشفى واسم الرجل ودونتهما فى دفترى الصغير.

التقطت بعض الصور للمتجر من الخارج وآثار الدمار عليه، لم يكن مسموح لى أن أدلف إلى المتجر لأن هذا موقع حادث ما زال قيد التحقيق، لكنى استغللت انشغال رجال الشرطة بسؤال الناس وعبرت الحاجز خلسة، خطوت بضعة خطوات بالداخل، كل شىء كان قد طالته يد التخريب، يبدو أنهما لم يكونا فى وعيهما حقًا، لا أعرف عم كنت أبحث، لكن المكان والرجل وتوقيت الحادث ومجيئى هنا بالصدفة بالأمس ثم اليوم، كل هذا أثار ريبة فى نفسى وولد إحساسًا غامضًا لم أتبينه، خطوت للداخل أكثر، كان المكان يزداد ظلمة، ولمحت ما بدا لى إنه باب صغير فى الحائط الجانبى، اقتربت أكثر أتبينه حين سمعت من ينادى بالخارج ويصيح فىّ بعدم أحقيتى فى الدخول.

رسمت البلاهة على وجهى وادعيت أننى لم أكن أعرف واعتذرت

بكلمات سريعة وأنا أتجه صوب سيارتى وأنا أحاول إخفاء دفترًا صغيرًا من ورق أصفر مهترئ سحبته بسرعة قبل أن أخرج من على المقعد الذى كان يجلس عليه العجوز بالأمس.

أغلقت باب السيارة وأخرجت كنزى الصغير، لكنه كان كنزًا بالصينية، لا توجد كلمة واحدة بالإنجليزية، سأحتاج أن أترجمه، رغم أننى لم أكن أعرف عم أبحث ولماذا أصلًا، لكنى كنت متحمسًا ولا أدرى السبب، لعلنى ربما كنت أحاول أن ألهى نفسى عن إحساسى بافتقاد"آن" بأية وسيلة.

عدت إلى البيت بعد أن ابتعت غداءً سريعًا من شطائر تناولتها وفتحت حاسوبى لأبدأ بالترجمة الرأسية، كانت الأوراق مصفرة ومهترئة بشدة حتى أن رموزًا كثير كانت قد تلاشت بالفعل، الكلمات كتبت بحبر أسود وبخط فى بدايته مبهرج وغير متناسق، خط طفل فى الأغلب، ثم يتغير الخط بشكل ما فى المنتصف ويتغير مجددًا كلما تواصلت الصفحات الصغيرة الصفراء، حتى ينتهى بخط مهزوز تمامًا حتى أننى لم أتمكن من ترجمة معظمه، كان الدفتر فى حجم كف اليد أو أصغر وبه رسومات لم أفهمها، بعد ثلاث ساعات تقريبًا كانت النتيجة عجيبة وكانت كالتالى:

"كان أبى يقول إن هذه أسطورة، لكنى لم أكن أصدقه،

فقد كنت أشعر بشىء مريب يقوم به جدى الأكبر فى قبو بيتنا،

لم يكن يسمح لى أحد بالنزول إلى هناك، غير أنه كان دائمًا مغلق،

لما تسللت مرة إلى هناك، كادوا أن يقتلونى، وحبسونى فى غرفتى ثلاثة

أيام.
كان أبى يقول إنه وجدى ينفذان فى القبو طقوس صلاة، لكنى لم أكن أصدقه،
فقد كنت أراهما يخرجان ويدخلان صناديق مغلقة من وإلى القبو.
لم أكن أعرف ماذا يوجد بالداخل، لكنى بالأمس لمحت شيئًا غريبًا،
كان أحد الصناديق ملطخ بالدماء، لم تكن هذه طقوس صلاة.
كان أبى يقول إنه يساعد جدى فى إجراء جراحات لبعض المرضى.
كان أبى يقول إن جدى يفقه كثيرًا فى أمور الطب،
لكنى لم أكن أصدقه، فأنا أعلم جيدًا أن جدى مشعوذ.
كما أعلم تمامًا أن أبى كان يكذب، أنا لم أعد طفلًا، هناك شىء ما خطير يجرى بالأسفل،
والجميع يحرص على ألا أعلم شيئًا عن هذا الشىء.

سوتشو- ١٧٨٢
مرت سنوات طويلة منذ آخر مرة كتب فيها بهذا الشأن،
كنت قد نسيت أمر هذا الدفتر أصلًا حتى وجدته بالصدفة،
يمكننى أن أقول الآن إن أبى لم يكن يكذب، ليس تمامًا،
مر خمسة عشر عامًا، لقد صرت الآن أعرف كل شىء.
وكان الأمر رهيبا بحق
نهاية الجزء الأول



تواصل معنا :

01067000701

E-mail -: Fasla .Pub@Gmail .com

Facebook .Com/Fasla .Pub